

روايات مصرية للجيب
58
أسطورة
أرض المظايا
ما وراء الطبيعة
www.dvd4arab.com
Hany3H
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة المقدمة

هناك ذلك الظل الذى تراه أمامك .. ثم تنظر للوراء فلا ترى أحدًا ..

هناك ذلك الحفيف الذى يضايق العصبيين ، والذى لا مصدر له ..

هناك تلك الغمغمة التى تقسم إنها ضحكة ساخرة ، لكن لا أحد يضحك ضحكات ساخرة ..

هناك الخوف من المجهول .. هناك التوجس .. هناك المفارقة الدرامية ، حين تعرف أن الخطر ينتظر هنالك خلف الباب الموصد ، لكن صوتك لا يصل ـ ولن يصل ـ إلى الأحمق الذى يوشك على فتح الباب ..

هناك الخوف من الغد .. وهو ـ لَعَمْرِى ـ أشد أنواع الرعب شناعة ..

لماذا لا يكتبون على ملصقات الأفلام التى تناقش الخوف من الغد عبارة (ممنوع لأقل من ١٦ سنة) ؟

أنا العجوز الأحمق (رفعت إسماعيل) الذى يحاول مراوغة

الموت .. للدقة أكثر : مراوغة التفكير فى الموت ، وهذا عن طريق حكاية قصص مسلية لكم .. قصص تتمسّح بالرعب .. تدنو منه أو تبتعد .. تتأبّط ذراع الظواهر الخارقة أحيانًا .. تلبس عباءة الغرائب أحيانًا أخرى ..

لكنها قصص لعوب .. خبيثة .. تحاول بأية طريقة كانت أن تلفت النظر لنفسها ، وهى فى سبيل ذلك تفعل أى شىء ..

عم نتكلم اليوم ؟

هل حكيت لكم قصة (المقبرة) ؟ نعم ؟ لم أستكملها بعد ؟ غريب هذا .. خيل لى أننى أكملتها .. لكنى سأطلب منكم معروفًا .. لقد تأهبت لحكاية أرض العظايا .. منذ أعوام وأنا أتوق لأرض العظايا .. القصة مكتوبة بخط الأخ (سالم) ولن تحتاج منى إلى جهد غير القراءة .. مع تصحيح بعض أخطاء القواعد ، التى يمارسها بدقة غريبة كأنها هى القواعد ذاتها ..

اتفقنا ؟ سأفسح المجال لـ (سالم وسلمى) على أن نلتقى على خير فى المرة القادمة ، ونكمل قصة المقبرة ..

لماذا أفعل هذا ؟

لأنكم اعتدتم نزوات (رفعت إسماعيل) ، وعرفتم أنه لا يفعل شيئًا أبدًا كما يفعله السادة المهذبون الآخرون .. يبدأ من النهاية ، ويتوقف فى الوسط ، ويخرج من النوافذ ، ويشمُّ الهواء من الأبواب ..

فلنصغِ إذن لـ (سالم وسلمى) ..

<u>ملحوظة مهمة</u> : أكثر المصطلحات والأسماء الغربية الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية ، والسبب ليس التحذلق ولكن لأن بعض الأصدقاء طالبونى بهذا مرارًا ، ليسهل عليهم معرفة الهجاء الصحيح ، فالبحث عن المزيد من التفاصيل فى الإنترنت إذا أرادوا .. هذا مطلب عادل مهم .. ولسوف أحاول الالتزام به فى كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله ..

مقدمة

أنتم تعرفوننا جيدًا .. أنا (سالم) وهى (سلمى) .. الدليلان الحيان على وجود ما يعرف بالعوالم الموازية ، وهو دليل لا يمكن إذاعته للأسف ..

هى (سلمى) وأنا (سالم) .. صحيح أننا زوجان لكننا كذلك نوشك على أن نكون الشخص ذاته ، وهذا يسبب لنا الكثير من الضيق والهم .. سؤال الفلاسفة الأزلى : هل تشابه الطباع أفضل أم توافقها ؟ كيف تستطيع المشى لو كانت كلا قدميك يمنى ؟ لو رأت عيناك الشىء ذاته لفقدت القدرة على التجسيم ..

نحن نجول فى العوالم التى تشبه الأرض مع اختلاف بسيط .. مرة نحن فى عالم لم يعرف بعد اللغة الهيروغليفية ، ومرة نحن فى عالم لم يظهر فيه (قطز) قط ..

إن مغامراتنا حقيقية .. أؤكد لك هذا .. لكن كتّاب الأرض يكتبون نوعًا من الأدب يشبه ما نمر به ، ويطلقون عليه اسم (التاريخ البديل) أو Allohistory .. وقد يطلقون عليه مصطلحات مثل (الخيال المضاد Counterfactuals) أو قصص (ماذا إذا ؟) أو (الأوكرونيات Uchronias) ..

على كل حال لن أطيل عليكم .. إن المصطلحات هى الشىء الذى يجعل الماء شيئًا مستحيل الشرب أو الفهم ..

أنا وزوجتى ضيفان هنا ، وقد عرفتمونا فى (أسطورة أرض أخرى) و(أرض المغول) .. لماذا لا تعرفوننا من جديد فى (أرض العظايا) ؟

لامزيد من التفاصيل ، ولن أضيع أربع صفحات فى تلخيص القصتين السابقتين كما يفعل (رفعت إسماعيل) .. إنه يملك الكثير من الوقت والكلمات ، بينما نحن نعانى حالة مزمنة من الشح فيهما ..

هل نبدأ ؟

فلنبدأ ..



١ ـ أرض أخرى ..

لا أعرف السبب فى أن كل مغامرة جديدة لنا تبدأ ونحن فى أسوأ حال ممكن ..

٢٥٠ ـ ٧٧ ..

هذا هو المكان والزمن الذى حملنا إليه الجهاز .. لو كان لى أن أحكم بالحدس فإن هذا الكوكب بهيج .. أنا مولع بالكواكب التى تبدأ برقم ٢٥٠ كما تعرفون ..

كان كعبى يوشك على قتلى .. من قرءوا المغامرة السابقة يعرفون أننى تلقيت رصاصة فيه ، ولا أعرف إن كانت قد غادرته أم لا .. يداى غارقتان فى دماء متجمدة لا أعرف إن كانت تخصنى أم تخص الجثث التى قمت بسرقتها كالضباع .. أضف لهذا أن يدى نفسها متجمدة من الجليد ..

٢٥٠ ـ ج ـ ٧٧ ..

(سلمى) ليست أفضل حالاً وإن كانت غير جريحة .. لكنها تشعر بالألم ذاته فى كعبها ..

كنا راقدين على الأرض وسط الرمال .. الطقس حار فعلاً وإن لم نشك من هذا ..

قالت لى وهى تتحسس رأسها :

ـ « لا أعرف أى شىء عن هذا العالم ، ولا ما سنلاقيه هنا ، لكن أول تجربة سنمر بها هى اعتقالنا بتهمة التشرد .. إن منظرنا لا يوحى بالثقة .. »

ـ « فى أرضى أنا يطلقون على هذا (محضر اشتباه وتحر) .. »

ثم راحت تتشمم الهواء الساخن من حولنا .. وقالت :

ـ « (سالم) .. أعتقد أننا فى المنطقة العربية .. هذه صحراء عربية ولتقطع ذراعى إن لم أكن على حق .. »

ـ « الصحراء هى الصحراء فى كل مكان فلا داعى للرهان .. »

ونهضت وساعدتها على النهوض .. كنت أتواثب كالقلق وخطر لى أننى أمشى فى ثقة إلى النهاية الإغريقية المحتومة .. التلوث .. الغنغرينا .. بتر قدمى من تحت الركبة ..

لا بد من حل ما ..

٢٥٠ ـ ج ـ ٧٧ ..

أضفت وأنا أرمق الأفق حيث الجبال تحيط بنا من الجهات الأربع :

ـ « ثَمَّةَ مشكلة أخرى ، هى أننا لا نعرف طريق العودة .. لا نعرف أين يوجد الناس .. أرى أن تجربى مجموعة أخرى من الأرقام .. »

قالت وهى تتواثب بدورها :

ـ « لكن المغامرة لم تبدأ بعد .. »

ـ « حتى المغامرة لا نعرف كيف نصل إليها .. لا بد من اتجاهات صحيحة تدلنا على مكان المغامرات هنا .. »

قالت فى ضيق :

ـ « (سالم) .. لا تضايقنى .. على الأقل لا يوجد أى عامل ضغط من حولنا .. نحن حران مسيطران على الموقف ، فلماذا لا نتمهل بدلاً من إحباط كل شىء قبل أن يبدأ ؟ »

وكانت هذه هى المزية الفريدة لتجربتنا .. أنا أحب الأماكن التى يوجد لها باب هرب خلفى للطوارئ .. فى اللحظة التى تسوء فيها الأمور ، تمسك بالجهاز و(كليك .. كلاك ..) .. تنتهى كل المشاكل فى ثانية .. وتبدأ من جديد .. لطالما تمنيت فى كل مأزق حياتى ـ قبل أن ألقى (سلمى) ـ لو كان عندى هذا الباب الخلفى ..

ثمة مشكلة واحدة .. هى أننى لا أعرف على الإطلاق ما هى حياتى الحقيقية .. ما هى مشاكلى الحقيقية .. لابد من نقطة ارتكاز تقف عليها وتجرب الاحتمالات .. لكنى بدأت فعلاً أفقد نقطة الارتكاز هذه .. كان (أرشميدس Archimedes) يقول : هاتوا لى نقطة ارتكاز خارج الكرة الأرضية ، ولسوف أخترع روافع تحرك الأرض .. حتى (أرشميدس) لم يجد نقطة ارتكاز ..

واصلنا السير ..

وأنا نمطى جدًا فى مشاعرى .. ما إن أرى الصحراء حتى أشعر بالظمأ .. هكذا دون أن أعطى خلاياى فرصة تجربة الجفاف .. وقد بدا لى الأمر رهيبًا ..

ـ « هل تشعرين بالظمأ ؟ »

ـ « كف عن المزاح .. أنت تعرف أننا متطابقان شعوريًا .. لكن الأمور لم تتطور إلى هذا الحد .. »

سبحان الله .. منذ ربع ساعة كنت أرتجف بردًا وسط الثلوج .. والآن أنا أموت عطشًا فى الصحراء ..

كنا نمشى وسط الرمال الناعمة الساخنة .. لاتوجد نقطة ظل من أى نوع .. لابد أنه متوار فى مكان ماتحت أقدامنا ..

لعابى لزج ثقيل .. الهواء الساخن يخرج من أنفى كأنما يخرج من فتحة فرن ..

قلت لها فى ضيق :

ـ « أرى أن هذا يكفى .. »

ـ « ربع ساعة فى هذا العالم ؟ إذن أنت لن تجد مكانًا يناسبك فى الكون كله .. تريد مكانًا بلا معاناة من أى نوع ؟ »

ـ « أصبت ! هذا من حقى ما دمت أملك الاختيار .. »

★ ★ ★

لكن الأمور لم تتحسن ..

لابد أننا مشينا نحو ساعة أو أكثر بلا جدوى ..

هناك جبال من بعيد .. جبال تعسة فقيرة لا تسُرُّ الناظرين ، عليها بعض نباتات أو طحالب كئيبة المنظر .. وعلى كل حال ليس بلوغ هذه الجبال بالهدف المحبب .. لابد أن تلك التجاويف تحوى ثعابين أو عقارب أو أى شىء من تلك الأشياء التى تعرف كنهها ، لكنها بشعة تتحرك !

وفجأة تعالى صوت الهدير من بعيد ..

بللت شفتى السفلى بلسان جاف وهمست :

ـ « طائرة ! »

قالت وهى تنظر لأعلى :

ـ « هذا صحيح .. لكن أين ؟ »

الهدير يأتى من كل مكان ، ثم بدأ الأمر يتحسن ..

إنه آت من الغرب ..

أخيرًا لاحت لنا الطائرة العمودية .. قادمة من الأفق تزحف نحونا فى إصرار وتؤدة ..

لسبب ما لم أحب هذه الطائرة ..

وثبت (سلمى) فى الهواء ملوحة بيدها .. وراحت تصدر أصواتًا مثل (أووه ! هيييه ! نحن هنا ! »

قلت لها فى توجس :

ـ « اصمتى يا بلهاء .. هؤلاء قد لا يكونون ملائكة .. إن الملائكة لا تأتى دومًا بطائرات مروحية .. »

ونظرنا لأعلى .. لم يكن لكلامى جدوى ، فالسمع ليس من الحواس التى يحتاج إليها هذا الطيار ؛ لأننا منظوران

واضحان تمامًا .. لو لم يرنا هذا الطيار فهو أول طيار كفيف فى التاريخ ..

الآن صارت الطائرة فوقنا ، والذى أثار دهشتى أنها لم تطلق وابلاً من النيران .. لم تقذف علينا قنبلة .. لم ترسل لنا سلمًا من الحبال .. لم تفعل شيئًا على الإطلاق ..

ظلت تحوم حولنا على ارتفاع أمتار ، واستطعت أن أرى أن هناك من يطل من بابها ..

وكان يحمل كاميرا ..

بعد قليل فهمت أنهما رجلان ينظران لنا باهتمام وكلاهما يحمل كاميرا ..

ESF ..

متى رأيت هذه الحروف وكيف ؟ لا أعرف .. فيما بعد عرفت مصدرها .. كانت مكتوبة على الطائرة ، لكنى لم أجد الوقت الكافى لتبينها ، ولهذا تسربت إلى عقلى الباطن .. هذا شىء معروف .. كل خبير فى علم نفس الإعلان يعرف هذا ..

على الرغم منى ابتسمت محاولاً أن أكون وسيمًا .. وتخيلت صورتى من أعلى أنظر إليهما بأغبى نظرة ممكنة ..

لماذا لا يمدون لنا يد العون ؟ لماذا لا يقتلوننا ؟ لماذا لا يقولون شيئًا ؟

قالت (سلمى) وهى تنظر لأعلى محاولة أن تتحاشى نور الشمس .. الشمس التى تتوارى خلف الطائرة كاشفة عن أنيابها من حين لآخر لتحرق عيوننا بألف نصل ساخن :

ـ « (سالم) .. يبدو أنك كنت على حق .. »

ـ « أنا دومًا على حق .. ولكن لماذا ؟ »

ـ « هناك رجل ثالث يصوب بندقية نحونا ! »

★ ★ ★



٢ ـ أرض العطايا ..

انطلقت الرصاصة ..

لم أعرف ما حدث .. وحسبت أنها أخطأت طريقها ..

لكنى نظرت إلى الوراء نحو (سلمى) فوجدتها تجثو على ركبتها وتمد يدها إلى شىء فى كتفها .. كانت تترنح ..

هتفت كمن يولول :

ـ « أيها الأوغاد !! »

وتواثبتُ نحوها .. رأيت ذلك الشىء مغروسًا فى كتفها .. لم تكن هناك دماء .. كان هناك ما يشبه الريشة الهفهافة البيضاء يخرج من ثيابها .. ولم أفهم فى البدء ثم تذكرت :

ـ « هذه طلقة مخدرة .. إنهم ... »

لكنها كانت تترنّحُ مغمضة العينين .. ثم هوت على وجهها وسط الرمال ..

نظرت لأعلى ولوحت بقبضتى وأطلقت فيضًا من الشتائم ، لكنى حين نظرت لركبتى وجدت ذلك السهم ذا الريشة يتشبث بلحمى فى ثبات ! لقد أصابونى لا أعرف متى ولا كيف ..

الظلام يبدأ من مركز الرؤية ثم ينتشر كبقعة من الحبر ..

أسمع صوت الطائرة يتعالى ..

أشعر بالهواء العنيف من مراوحها ..

ESF ..

ESF ..

أعرف أنها تهبط وأننى ...

★ ★ ★

حين فتحت عينى كانت هذه المرة الأولى التى أرى فيها د. (ستارسكى) ..

حاولت تحريك ذراعى فلم أستطع .. السبب طبعًا هو أننى مكبل بسيور جلدية إلى مقعدى ..

المكان خليط غريب من المختبر وقاعة المحاضرات والمطبخ ومكتب وكيل الوزارة .. أما الرجل الذى ينظر فى عينى باستعمال كشاف صغير فهو د. (ستارسكى) كما عرفت فيما بعد ..

كان يمسك بلوح كتابة من الطراز الذى تثبت فيه الأوراق

بمشبك .. وجواره يقف ثلاثة يرتدون المعاطف ويحمل كل منهم شيئًا مماثلاً ..

قلت فى وهن :

ـ « أين نحن ؟ »

نظر إلى من حوله ، وقال بلهجة واثقة :

ـ « كما قلت لكم .. هو يتكلم لغة ما .. أحسبها العربية .. »

نسيت أن أقول إنه قالها بالإنجليزية .. لست خبيرًا فى اللهجات لكنى أحسبها إنجليزية أمريكية .. كما ينطقونها فى الأفلام .. كأن كل أمريكى مصاب باللحمية إلى أن يثبت العكس ..

لم أكن ضليعًا فى الإنجليزية ، لكنى تلقيت قسطًا هائلاً من التدريب فى القصة السابقة ، وصرت بالفعل أجيدها .. لهذا عدت أكرر سؤالى بالإنجليزية :

ـ « أين نحن ؟ »

ثم تذكرت السؤال الأهم :

ـ « أين (سلمى) ؟ »

نظر إلى جوارى نظرة ذات معنى ، فاستدرت لأرى أن (سلمى) مقيدة على مقعد مجاور لى .. كانت غائبة عن الوعى لكنها حية .. صدرها يعلو ويهبط ورأسها يموج بحركة ما ..

قال الرجل وهو ينظر إلى الآخرين :

- « يعرف الإنجليزية .. هذا غريب .. »

ثم قال لى وهو يواصل تفحص عينى :

- « اسمها (سلمى) ؟ هذا اسم عربى على ما أظن ؟ »

- « من أنت ؟ »

- « ما سبب تلك الطلقة فى كعب قدمك ؟ »

وهنا تذكرت الطلقة ، ونظرت لأسفل لأجد أن كعبى مضمد بعناية لا بأس بها .. والأهم أن الألم زال تمامًا .. هؤلاء السادة لم يتركوا قدمى تتعفن حتى تبتر .. هذه نقطة لهم .. لكنى لست سريع الصفح بهذه الدرجة :

- « من أنت ؟ »

هنا جاءت الإجابة من أحد الواقفين :

- « هل نحلل عينات الدم الآن يا د. (ستارسكى) ؟ »

هز رأسه أن نعم .. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج شيئًا ..

كنت حتى هذه اللحظة أعانى دوارًا كأن هناك طبقة ضباب ملتصقة بوعيى والعالم كله .. عوينات متسخة بالشحم لا يمكن خلعها أو غسلها ..

لكنى رأيت ما فى يده فتنبهت حواسى على الفور ..

هذا هو جهاز الانتقال .. طبعًا كان فى جيب (سلمى) ووجدوه ، وطبعًا لا يعرفون كنهه .. ومن الواضح أننا سنعانى الكثير حتى نسترده ثانية .. لقد ولدت المغامرة والحمد لله !

قال لى فى برود :

- « ما هذا الجهاز ؟ »

كانت هناك كذبة واحدة جاهزة ، وقد قررت أن أستعملها لمرة أخرى :

- « هذا منظم لضربات القلب .. إنها تعتمد عليه للبقاء حية .. »

ابتسم ونظر فى عينى :

- « أنت سمعتهم يدعوننى بـ (دكتور) .. أنا طبيب وليس

من السهل خداعى .. ثق من أننى رأيت كل أنواع منظمات القلب .. وعلى كل حال لا أفهم من أين يمكنك الحصول عليه ؟ »

- « هذا هو الطراز الذى لم تره .. »

- « ليكن .. سأتحمل المخاطرة وأفترض أنك كاذب .. والآن هلا قلت لى كنه هذا الجهاز ؟ »

- « ليس لدى سوى ما قلت .. »

- « ماذا تفعلان فى أرض العطايا ؟ »

- « لا أعرف عم تتحدث .. »

نظر لى كأنما أسقط فى يده بفضل ثباتى وقوة شكيمتى .. ثم التفت إلى الرجال وقال :

- « خذوهما إلى الداخل .. »

إذن نحن فى الخارج .. ولم أدر كيف ولا متى فكوا قيودى .. ولا كيف صارت (سلمى) تمشى على قدميها بطريقة ثملة تدعو إلى الشفقة ..

لكننا فى النهاية وجدنا مجموعة من الأقفاص البائسة ..

أنا لا أعرف شكل الأقفاص التى كان الرومان يسجنون فيها العبيد قبل المصارعة ، لكن هذه لم تختلف كثيرًا ..

رائحة عطنة .. ظلام دامس .. باب حديدى صدئ ينغلق .. قفل ثقيل يوضع ..

ثم شىء يزاح من تحت الحديد .. طعام على الأرجح ..

أخيرًا نطقت (سلمى) :

- « هل .. هل الجهاز معك ؟ »

أرحت ظهرى إلى حديد القفص وتنهدت :

- « أخذوه طبعًا يا حمقاء .. ماذا كنت تتوقعين ؟ لقد صار هذا مملاً .. »

بللت بلسانها شفتها السفلى .. فزحفت على ركبتى إلى حيث كان الشىء الذى أدخلوه لنا .. تحسست بيدى فشعرت بأصابعى تنغرس فى مادة لزجة .. غالبًا هى تؤكل لكن ملمسها لا يدعو إلى الحماسة ، وثمة دورق ماء يحيط به البلل الرطيب الجميل ..

حملته وزحفت إلى حيث كانت جالسة فى الظل .. أراها بصعوبة لكنها غير مختفية .. ناولتها الدورق فراحت تجرع الماء فى نهم حتى اكتفت .. ثم ناولت الدورق لأنال نصيبى ..

قالت وهى تلهث فى الظلام :

ـ « أين نحن بالضبط ؟ »

قلت لاهثًا بدورى من دون سبب :

ـ « سألت كل هذه الأسئلة السخيفة من قبل .. بل وسألت : من هؤلاء .. وماذا يريدون منا .. لا إجابة .. المؤكد أن هؤلاء أمريكيو هذا العالم .. وأن هناك من يدعى الدكتور (ستارسكى) .. يبدو أنه عالم أو شىء من هذا القبيل .. وقد اصطادونا بطريقة تذكرنى بصيد الغزلان البرية .. النقطة الأخيرة هى أن هذه أرض العظايا .. »

كررت الاسم فى استهجان :

ـ « عظايا ؟ »

وضغطت على (العين) كأنها موشكة على القىء .. ثم أردفت :

ـ « ما دور العظايا فى الموضوع ؟ »

ـ « لا أدرى .. وأكون مشكورًا لو عرفت منك ما هى العظايا .. »

قالت فى الظلام :

ـ « العظايا هى الديناصورات .. عظايا الرعب (وسلوروس) .. العظايا الطاغية (تيرانوسوروس) .. الخ .. هل رأيت أية سحلية هنا ؟ »

ـ « لم أر .. لاحظى أننى غبت عن الوعى بعدك بدقيقة .. »

قطبت (سلمى) فى الظلام .. تسألنى كيف عرفت ؟ ألا تعرف الصوت المقطب حين تسمعه ؟

قالت :

ـ « ترى ما هو سر هذه الأرض ؟ »

* * *

٣ـ ESF ..

ـ « منذ متى أنتما هنا ؟ »

أجفلنا من الرعب ، ثم تبينت أن هذا الصوت المنهك يأتى عبر القضبان ..

قلت لها وقد أمسكت بيدى رعبًا :

ـ « لا تخافى .. هذا هو الموقف الشهير .. مع (الكونت دى مونت كريستو) يكون هذا الجار هو السجين (فاريا) الذى يعرف سر الهروب .. حتى فى السجون عندنا تسمعين من الزنزانة المقابلة من يسألك : ما هى تهمتك يا (زُمُل) ؟ بضم الزاى والميم طبعًا .. »

ثم بحثت عن مصدر الصوت وهتفت :

ـ « نحن هنا من دقائق .. من أنت ؟ »

وهنا فَطِنْتُ لحقيقة أنه يتكلم العربية .. عربية غريبة مُضَعْضَعَةً نوعًا لكنها كافية ..

قال الصوت المتعب من مكان ما عبر القضبان :

ـ « أنا (إسماعيل خان) .. عالم باكستانى .. لا أعرف إن كان هذا يفيدكما .. »

قلت له فى تعب :

ـ « أعتقد أنك تملك الإجابة عما يحدث هنا .. »

ـ « سوف تريان .. » ـ قالها فى غموض ـ « سوف تريان .. »

حتى رفيق السجن أو (الزمل) ـ بضم الزاى والميم طبعًا ـ لا يبدو ثرثارًا هنا .. كل الأطراف غير عادلة تتوقع منا أن نعرف بنفسينا وإلا فلا .. على كل حال أعتقد أن هذا الرجل ليس عربيًا على الإطلاق .. ربما هو هندى أو أفغانى أو ماليزى ..

وهكذا مرت علينا الساعات .. بين نوم واكتئاب ، واكتئاب ونوم .. وتساؤلات لا تنفد أبدًا ..

بعد ساعات أو أيام أو أشهر ـ لا يمكن معرفة الوقت فى هذا الظلام الدامس ـ جاء من يصحبنا إلى ما يشبه غرفة التحقيق ..

لا بد أنها كانت ساعات .. لأننى لم أحتج إلى استعمال الحمام مرة واحدة ولو احتجت لوجدت نفسى فى مأزق ..

★ ★ ★

الآن وقد ثبت إلى رشدى قليلاً يمكن أن أصف لكم الدكتور (ستارسكى) .. إنه رجل ذو ملامح مزعجة .. يمكن أن تقول بشكل سطحى إنه وسيم أشقر .. لكن فى وجهه قسوة وبرودًا ، وهو من طراز الوجوه التى لا تشيخ مما يثير الرعب فى عروقك .. كأنه وجه مصاص دماء أو (زومبى) ..

كان هناك مقعدان ، وكان هناك عدد من الحراس مفتولى العضلات يدس كل منهم سماعة فى أذنه .. لا أعرف من اكتشف أن الرأس الأصلع يجعل المرء يبدو أضخم وأشرس ، لكن هذا الاكتشاف بلغ هذا العالم .. وكانوا يلبسون بزات عسكرية ما لكن بلا غطاء رأس .. هذا المكان عسكرى إذن ..

لماذا يلف كل منهم حول عضده شارة تقول ESF ؟ ما معناها ؟

ثمة جهاز تسجيل يدور ببطء ، وثمة إضاءة تذكرك بغرف استجواب النازيين ..

ما إن دخلنا حتى أشار لنا بالجلوس ، وقال :

ـ « هل أقدم لكما مشروبًا ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

فالحقيقة أن الحرارة كانت مرهقة بالفعل .. من الواضح أننا لم نفارق المنطقة الصحراوية بعد ..

جاء أحد الحراس حاملاً زجاجة بها سائل أصفر ، وبعض الأكواب الملأى بالثلج ، فقال الطبيب وقد رأى ارتباكنا :

ـ « عصير برتقال لا أكثر .. نحن فى وحدة عسكرية ولا يسمح بالكحوليات .. أعرف أنكما معشر العرب لا تشربونها أصلاً ..

وهكذا أمسكت بالكوب .. ونظرت إلى (سلمى) .. كانت ترشف ما فى كوبها ، وخلاياها تنتعش .. تينع بعد جفاف .. فعلت مثلها وشعرت بما شعرت به ..

هنا نظرت إلى المنضدة فرأيت الجهاز العزيز .. جهاز الانتقال .. إنه هنا ..

قال الطبيب وهو يصب لى كوبًا آخر :

ـ « والآن هل يمكنك أن تتكلم ؟ من أنتما ؟ لماذا أنتما هنا ؟ هل أنتما عربيان حقًا ؟ »

ثم لوح بالجهاز :

- « وهذا ؟ ما وظيفته بالضبط ؟ »

قالت (سلمى) وقد بدا أنها تحبس أنفاسها :

- « هذا جهاز خاص للترجمة .. هل تسمح لى ؟ »

مد يده فى تردد ووضع الجهاز فى كفها المفتوحة ، ثم أراح ذقنه على قبضته وراح يتابع ما تفعله ..

- « نطلب رقمًا .. ليكن ٣٠٠ مثلاً .. ثم نضغط حرفًا .. ليكن (الهاء) .. ثم ... »

كان الجهاز على حجرها ، وكانت تضغط على الأزرار بإصبع واحد ، ثم إنها مدت يدها اليسرى فى رفق لتمسك بيدى اليمنى من تحت مستوى النظر ..

- « نختار رقمًا مثل ... »

هنا هتف الرجل :

- « كفى ! »

- « لحظة .. ٢ .. ٨ ... »

- « قلت كفى !! »

ثم نهض بسرعة البرق وانتزع - ذلك الوغد الذكى - الجهاز من يدها قبل أن تتم عمليتها ، وقال وهو يدسه فى جيبه :

- « لا أعرف ما أنت بصدده لكنى لن أسمح بأن تنجحى فيه .. والآن أرجو أن تجيبا عن أسئلتى .. »

قلت له وأنا أضع الكوب :

- « أسئلتى مثل أسئلتك بالضبط .. من أنتم ؟ لماذا أنتم هنا ؟ هل أنتم أمريكيون ؟ »

تبادل النظرات مع الرجال ثم سألنى :

- « ما معنى (أمريكيون) ؟ »

تبادلت نظرة مع (سلمى) .. إما أن تمييزى للهجات فاشل ، وإما أن هذا هو الاختلاف الأساسى .. هذا عالم لا توجد فيه أمريكا .. طبعًا سيتضح أن (كولومبوس Colombes) لم يصل إلى ساحل أمريكا ، ربما لأنه كان أحمق ، وقد غرقت سفينته .. أو لأن بحارته ثاروا وألقوه لأسماك القرش .. وهو ما كان سيحدث فى عالمى على كل حال لولا أنهم بلغوا الشط قبل أن يتموا خطتهم ..

هكذا لم أجب وأجابت (سلمى) عن السؤال بآخر :

- « ما حقكم فى احتجازنا ؟ هل أنتم شرطة ؟ »

تنهّد الرجل فى إنهاك ، وراح يصف أوراقه ، ثم قال دون أن ينظر لنا :

ـ « واضح تمامًا أننا لن نصل لطريق مشترك .. كلما سألت سؤالاً تلقيت آخر .. لا بد من أن يجيب أحد الطرفين عن الأسئلة أحيانًا .. »

ـ « قل هذا لرجالك ولنفسك .. »

أشار إلى الشارة المعلقة على عضد الحارس الواقف جواره ، وقال :

ـ « نحن من الـ ESF .. هل هذا كاف ؟ هذا يعطينا كل الحق فى استجوابكما .. »

ـ « وما هى الـ ESF ؟ »

بدا كأنما تعلم أسلوبنا فى عدم الإجابة على شىء ، فنهض ورتّب أوراقه ، ثم قال وهو يغادر المكان :

ـ « ثمة طائرة ستحملكما إلى (لوس أنجليس) صباحًا .. أعتقد أنهم هناك سيعرفون عنكما كل شىء .. »

(لوس أنجيليس) ؟ إذن ما معنى أنه لا يعرف معنى لفظة (أمريكيون) ؟

دنا منا أحد الحراس .. إنه غير مسلح لكن من الواضح أنه لن يتورع عن استخدام العنف .. وهكذا مشينا معه فى تهذيب .. لكنه لم يقتدنا إلى الأقفاص إياها .. بل إنه أجلسنا فى مكتب مكيف مريح نوعًا .. مكتب لا يحوى إلا جهاز كمبيوتر وثلاجة صغيرة .. ثمة نافذة صغيرة وأريكة وثيرة وبعض نباتات الظل .. هناك ـ لحسن حظ الجميع ـ حمام صغير نظيف فى غرفة صغيرة جانبية ..

ثم أغلق الحارس الباب ..

بمجرد خروجه فعلت (سلمى) الشىء الذى كنت أعرف أنها ستفعله باعتبارها بارعة فى الإلكترونيات .. لن أقول إنها أكثر براعة منى ، لأنه لا براعة لى على الإطلاق .. لا يمكن أن تقارن بيننا على أساس كثافة شعر اللحية أو نسبة هرمون الأنوثة .. هذه أمور غير واردة أصلاً ..

لقد فتحت جهاز الكمبيوتر ! هذه معجزة كما ترى ..

قالت فى ضيق وهى تتأمل الشاشة :

ـ « ليس لديهم نظام تشغيل أعرفه .. مثل (الخوارزمى) أو (الإدريسى) .. لا أعرف كيف يبدأ البحث فى هذا الشىء .. »

تذكرت أن الكمبيوتر فى عالمها اختراع عربى صرف ،

وليس لديهم أسماء كالتى نستعملها على غرار (ميكروسوفت) و(النوافذ) .. الخ ...

لكن على الشاشة ـ حيث ما تسمونه سطح المكتب ـ كانت هناك صورة عملاقة لديناصور (سبينوسوروس Spinosaurus) ضخم يقف جوار بحيرة واعدًا بخراب بيت من يقترب .. وكانت هناك الحروف المعتادة ESF كتبت بحروف مجسمة عملاقة كأنما تطير مع السحب فى السماء ..

فيما عدا هذا بدا كأن الشاشة جدار مبهم لا يمكن تجاوزه ..

حتى الصور الصغيرة ـ هل تسمونها الأيقونات ؟ ـ كلها تمثل ديناصورات منوعة ..

أغلقت الجهاز وقالت :

ـ « لا أعرف .. لا يبدو لى هذا المكان ذا طابع عسكرى .. كأنى بهذا الحاسوب خاص بصبى يهوى الديناصورات .. »

قلت لها فى ضيق :

ـ « صدقينى أنا لا أهتم كثيرًا سوى بالحصول على الجهاز

الكريه .. فى المرة المقبلة يجب التأكد من أنه مخفى بعناية .. ربما لو ابتلعته لكان الأمر أفضل .. »

قالت وهى تجوب الغرفة جيئة وذهابًا :

ـ « لو تركنا الأمر لك لانتهت كل احتمالات هذا الجهاز خلال ربع ساعة .. ولن نعرف شيئًا أبدًا .. »

ـ « أنا لا أبالى كثيرًا .. لاحظى أننا نتعلم عن عوالم أخرى ، لكننا لن نعود أبدًا للعالم الذى تكون فيه هذه المعلومات ذات قيمة .. هل تفهمين ما أقول ؟ لفظة (عجيب) و(غريب) لا معنى لها إلا فى أرضى أنا .. أما هنا فلا قيمة لرأيك .. »

لم تكن تسمع ما أقول .. كانت تنظر إلى النافذة ..

ثم اتجهت لها ورفعت الزجاج .. كانت هناك شبكة دقيقة مخصصة لإبعاد البعوض ، لكن لا توجد حماية أخرى من أى نوع .. ومن الخارج كان الظلام وبعض مصابيح قصية ونسمة هواء حانية رقيقة ..

ـ « إنهم حمقى .. ما رأيك ؟ »

ـ « ومن أدراك أن الخارج أفضل ؟ »

ـ « لا أحتاج إلى حكمة العالم كى أختار الفرار من أى مكان

مغلق يقف على بابه حارس .. سل عن هذا أية قطة أو ذبابة تحترم نفسها .. أى مكان هو أفضل من المكان المغلق الذى يقف عليه حارس .. »

- « والجهاز ؟ »

- « لن نستطيع استرداده لو حملونا إلى (لوس أنجيليس) .. ثق بهذا .. »

ثم بحثت قليلاً حتى وجدت فتاحة ورق على المكتب .. غرستها فى السلك فبدأ ينهار ..

تبًا ! لابد أن قرحتى عادت تنشط من جديد ..

تدريجيًا اتسعت الثغرة أكثر فأكثر .. وهكذا نظرت لى باسمة ، ثم حشرت جسدها فى الفتحة .. نسيت طبعًا أن أقول إننا فى الطابق الأرضى ..

لم يبد لى هذا مريحًا .. ليس الأمر بهذه البساطة .. لايجب أن يكون بهذه البساطة ..

على كل حال انتهى ماكان يربطنى بهذه الحجرة ، فحشرت نفسى عبر الفتحة .. لايكلفك هذا أكثر من بضعة تمزقات فى الكفين ، لكنك تعبر فى النهاية ..

أخيرًا نقف فى الخارج ..

الرمال والبرد والظلام .. نحن فى الصحراء ليلاً .. هذا واضح ..

لايوجد حراس .. هذا واضح .. هناك كشافات من بعيد ، لكنها كشافات محايدة ودود لاتبحث بل تنتظر ..

مشينا فى الظلام عاجزين عن معرفة وِجهتنا بالضبط .. لافارق عندنا إن سمعنا (قف !) أم لم نسمعها .. المشكلة الوحيدة هى أن نسمع صوت الطلقات .. لكن لايبدو أن هناك طلقات حتى الآن ..

كان هناك هدير محرك ، والهدير كان آتيًا من سيارة تقف هنالك على اليسار .. سيارة عسكرية هى .. شاحنة عليها علامة ESF اللعينة المعتادة ، وكانت تلوث الهواء بلاكلل ..

هناك جندى يقف على بعد يثرثر مع صديقه ويبدو أنه يمزح .. لكمات على الكتفين وسباب إنجليزى فظ ..

وبالطبع خطرت لنا نفس الفكرة معًا ..

اتجهنا إلى مؤخرة العربة .. وثبت إلى ظهرها ، ومددت يدى إلى (سلمى) أساعدها على الوثب ..

كانت هناك أغطية لعلها قماش خيام .. لا أعرف .. إن الظلام يجعلنى لا أرى يدى كما لاحظتم ..

المهم أننا تدثرنا بهذه الأغطية ورقدنا على بطنينا .. وهكذا صرنا فى معزل عن الأبصار .. محرك يهدر .. معنى هذا أن الرجل سيرحل ، ولو عاد ليغلق المحرك وينام لقتلنى الغيظ ..

فجأة سمعت (سلمى) تهمس فى أذنى :

- « هناك أشياء صلبة تحت قدمى .. هل تشعر بها ؟ »

- « لا .. لا أعتقد .. »

مدت يدها تتحسس وهى تغمغم :

- « صبرًا .. سأرى .. يبدو لى أن ... »

ثم صرخت صرخة أنثوية هستيرية متقنة جدًا :

- « (سالم) !! هذه السيارة محمّلة بعظام بشرية !! »

★ ★ ★

٤ـ الصيادون ..

مددت يدى تحت الغطاء ورحت أتحسس ..

حقًا هناك عظام .. لكن من قال إنها بشرية ؟ كل العظام تتشابه وإلا ما كان تمييز العظام المفتتة معضلة معروفة فى الطب الشرعى .. هذا بالطبع ما لم تجد جمجمة واضحة تنهى التساؤل ..

قلت لها همسًا :

- « خفّضى صوتك يا بلهاء .. هناك عظام لكن من قال إن ؟ »

- « أنا أعرف هذا .. »

حسن .. ها نحن أولاء نعود إلى الحدس الأنثوى .. النقطة التى لا نجرؤ معها نحن الرجال على الكلام ويخرسننا بها .. هن شفافات نقيات الروح ونحن ماديون مغلقو الروح كالحجارة .. ليكن .. لكن هذا لا يغير من خطتنا شيئًا .. سنبقى هنا لأن مغادرة السيارة قد يكون أخطر من ركوبها ..

الحق أن هذا القرار كان صعبًا لأنها دخلت فى حالة هستيرية وراحت ترتجف وتتشنج ..

هنا تعالى صوت هدير المحرك .. وكان يوحى بالحركة هذه المرة ..

إننا ننطلق ..

هكذا توارى صوت نشيجها ورحنا نفكر صامتين ، بينما رأسانا يرتفعان ويهويان ..

لحظات توقف وكلام ثم تحرك .. واضح أن هناك نقاط حراسة يقدم عندها السائق أوراقه .. أرجو ألا تكون هذه النقاط تفتش الحمولة ..

أخيرًا يبدو أن السيارة تنطلق فعلاً ..

أزحت الغطاء قليلاً فرأيت الصحراء المظلمة .. النجوم جلية محددة كما لم أرها قط .. ثقوب صنعت بدقة فى الغطاء الأسود الذى يغلف الكون .. ومن بعيد وحوش لا يمكن أن تعتقد أنها جبال ما لم تلمسها ..

ومن أمامنا لم يكن يشق الظلام إلا ضوء السيارة الخافت .. كأنه عصا سيدنا (موسى) تشق أمواج البحر الأحمر .. طريق يولد فى كل لحظة ويختفى فى اللحظة ذاتها ليولد مزيد منه ..

الأغرب هنا أننى أرى مشهدًا على كوكب آخر .. مجرة أخرى ! لا أعرف كيف أصف هذا .. لا أعرف كيف أصدقه .. لكنه بالتأكيد حقيقى ..

ارتجفت رهبة .. تمالكت نفسى .. ثم ألصقت وجهى بوجه (سلمى) وقلت بصوت عال هذه المرة :

ـ « أعتقد أن هذه العظام آدمية بالفعل و.... »

ـ « قلت لك هاذا!!!!!! ؟؟ »

وبدأت فى مزيد من الصراخ ، فوضعت يدى على فمها لتخرس قليلاً :

ـ « لم أطلب منك استئناف الهستيريا .. دعينى أكمل كلامى .. ما دامت هذه العظام آدمية وهذا معسكر حربى ، فمن الواضح أن الأمر يتعلق بجريمة حرب ما .. هذه العظام تخص ضحايا المعسكر ! »

ـ « وماذا تقترح ؟ »

ـ « ثمة احتمال لا بأس به فى أن يكون هدف هذه الرحلة التخلص من هذه العظام ـ بقايا مذبحة ما ـ فى الصحراء بعيدًا عن العيون ، وهذا يضع أمامنا احتمالاً لا بأس به أن تكون

الصحراء نهاية الرحلة وبعدها يعود الرجل إلى المعسكر .. أى أننا لسنا ذاهبين إلى أى مكان .. إن هى إلا رحلة فى هواء الليل بعدها نعود حيث كنا .. »

بدأت تستجمع ذكاءها نوعًا ، وقالت :

ـ « لا أرى هذا .. لن يستطيع السائق وحده إفراغ العربة .. لا بد من أيد عاملة معه .. »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

ـ « معناه أنه بالفعل ذاهب إلى مكان ما .. قاعدة أو محطة أو مدينة .. »

وهكذا لبثنا راقدين نراقب الصحراء .. الصحراء الصامتة العجوز التى لا تعبأ بشىء .. لقد رأت الكثير ولم تعد تهتم بسيارة عابرة ..

فقط أرتجف لفكرة أن هناك فى الظلام تتحرك ألف حياة وحياة .. ألف حياة تنتهى بين أنياب ألف حياة تحاول الاستمرار .. ترقد بين العظام تحت غطاء من النجوم فى صحراء مجهولة قاصدة وجهة لا تعرفها .. كل هذا على مجرة لم تسمع عنها قط لكنها تشبه عالمنا سطحيًا ..

وفكرت فى منظر السيارة وهى تعبر المدق الصحراوى

فى هذه الساعة .. مسكينة هى الأشباح والغيلان فى الفيافى ! لا بد أنها تصاب بهلع كبير حين ترى هذا المشهد المخيف يقطع خلوتها ..

لا بد أننى نمت .. من اليقين أننى لم أغمض عينى ثانية واحدة ، لكن كيف تفسر أن وعيى غاب عن الكون للحظات ، بعدها شعرت بـ (سلمى) تهز كتفى ..

ـ « يبدو أننا ندنو من شىء .. »

رفعت رأسى ، فوجدت بوابة عملاقة تدنو منا ببطء ..

بوابة تحرس ما بدا لى كمدينة صحراوية كاملة .. رقعة تستحم فى أضواء باهرة .. وثمة مبان حقيقية تتناثر هنا وهناك ..

قالت لى :

ـ « هل ترى أن نثب الآن ؟ »

فكرت حينًا ثم هززت رأسى أن نعم .. ليس من مصلحتنا أن نجتاز هذه الأسوار .. لا نعرف ما يوجد بالداخل ، ثم إن الاحتمال الأعم هو أن يأتى عمال ليفرغوا الشاحنة .. هذا هو ما توقعته ..

لا أعرف ما يدور خلف هذه الأسوار .. هل هذا مدفن عملاق لضحايا المعسكر السابق ؟ لن أندهش لشىء حتى ولو اتضح أن هذه (لوس أنجيليس) نفسها ..

كانت سرعة السيارة الآن أقرب إلى التوقف منها إلى السير .. نهضنا ثم وثبنا ..

وبعد قليل كنا على الرمال الباردة المبللة بالندى ..

هكذا يمكن إلى حد ما القول إننا عدنا إلى لحظة البداية .. فقط ازددنا علمًا ـ أو حيرة ـ وفقدنا الجهاز ..

خلف أحد الكثبان القريبة رقدنا منبطحين ورحنا نراقب المشهد الذى يدور من بعيد .. البوابة تفتح والسيارة تتقدم ببطء إلى الداخل .. البوابة تغلق .. الأضواء الصامتة لا تثرثر بالكثير ..

قلت لـ (سلمى) :

ـ « تعالى نحاول ترتيب ما عرفناه .. أولاً هذا عالم لا توجد فيه أمريكا لكن يوجد فيه أمريكيون .. ولا أعرف كيف .. »

قالت وهى تفكر فى عمق :

ـ « للديناصورات أهمية خاصة فى هذا العالم .. لا تنس أننا فى أرض العظايا ويعلم الله ما معنى هذا .. »

أضفت أنا :

ـ « هؤلاء القوم وحدة عسكرية ما .. ربما طبية كذلك .. والأمر على الأرجح يتعلق بضحايا مذبحة يتم التخلص منهم .. »

ثم نظرت لها فى غباء وفردت كفى :

ـ « جميل .. لكن ما معنى هذا ؟ »

ـ « لا معنى له .. ثمة قطع كثيرة تحتاج إلى قطعة تربط بينها كما يحدث مع ألغاز الأطفال Jigsaw .. وهذه القطعة لابد أن تكون طرفًا آخر لا نعرفه .. »

ـ « هل تعرفين ؟ أعتقد الآن أنه كان من الخطأ أن نثب قبيل دخول المدينة .. لو كانت هناك إجابات فهى فى الداخل .. »

ونظرت إلى المدينة الصحراوية الملتفة بالأنوار ، ومن بعيد كثبان الرمال ..

شعرت بقشعريرة تزحف على عمودى الفقرى وغرقت فى تفكير عميق ..

فجأة حدث الشىء الذى لا تتوقعه والذى يغير كل شىء بشكل غير مسبوق ..

دوى انفجار هائل من وسط المدينة .. لسان برتقالى تصاعد إلى السماء ، ثم دوى الصوت المروع الذى اهتزت له الصحراء ..

قبل أن نتساءل إن كان هذا هو الروتين هنا ، دوت صفارات الإنذار .. ثم تعالت الصيحات ، وكأنما بعصا ساحر برزت عشرات العربات .. كلها تطلق الأضواء المجنونة ، وكلها تتسابق نحو مركز المدينة ..

ثم دوت طلقات البنادق الآلية .. من كل مكان وفى كل اتجاه .. كأنك تجلس فى قاعة سينما تتمتع بنظام (دولبى Dolby) ممتاز ..

راتا!!!! .. راتا!!!! .. راتا!!!!!! !

من أين ولأين ؟ هذا أبسط حقوقنا .. نحن بلا ناقة أو جمل فى هذا الذى يحدث ، ومن حقنا أن نعرف من أين يأتى الخطر لنتفاداه ..

شعرت بيد (سلمى) تضغط على يدى وتشير لأعلى ..

نظرت إلى حيث أشارت .. إلى الوراء .. لأعلى ..

كان هناك عدد من الرجال يقفون فوق تلة تعلو مستوانا قليلاً ويطلقون البنادق الآلية بلا توقف .. ثم ينبطحون ..

هذا يفسر تأثير (الستيريو) العجيب الذى شعرنا به .. إن الطلقات تأتى من فوقنا ومن أمامنا فى الوقت ذاته .. ومن الجلى أنهم لم يرونا فى الظلام .. لقد كنا وسط السواد كأننا مجموعة من الصبار ..

ـ « فلنتوار قبل قدوم الطائرات ! »

كان قائل هذا أحد الرجال ، وقاله بالعربية .. عربية واضحة جدًا لم أصدق أننى أسمعها ..

طبعًا كان من الواضح أننى لا أستطيع أن أعلن عن وجودى .. لا أستطيع أن أقف لأتكلم لأن الكلمة الأولى منهم ستكون طلقة من هذه الطلقات ..

لكن (سلمى) تصرفت بلا تفكير ..

رفعت ذراعها دون أن تنهض وصاحت :

ـ « نحن هنا ! لا تطلقوا الرصاص !! »

ـ « (سلمى) يا بلهاء ! لا تـ ... »

طلقة واحدة مرت جوارها وبعثرت الرمال فى كل مكان .. ثم ...

انقطعت الطلقات من أعلى ولم تعد إلا طلقات من أسفل .. من موضع المدينة الصحراوية ..

صاح صائح من عل :

ـ « من أنتما ؟ هل عربيان ؟ »

ـ « نعم .. ونقسم على هذا .. »

فليس الوقت مناسبًا لأخذ قياسات الجمجمة وعينات الحمض النووى .. آخر وقت ومكان يصلح للدراسات الأنثروبولوجية هو فى ميدان رماية رصاص ..

ـ « إذن تعاليا معنا بسرعة ! إن هذه المنطقة ستتحول إلى محرقة حالاً .. »

وثبنا من مكاننا ورحنا نتسلق بينما قلبانا فى حلقينا ..

أخيرًا صرنا وسط هؤلاء ، ولم يكن الوقت مناسبًا لتبين وجوههم أو إجراء تعارف مناسب للسادة المهذبين .. فقط راحت أيد قوية تقودنا كما يفعلون بالدلاءْ فى الحرائق .. يد تلو يد تلو يد ، حتى صرنا عند مدخل كهف فى سفح تل من التلال ...

ـ « ادخلا بسرعة !! »

ولم أدخل بالسرعة الكافية .. استغرقت وقتًا يكفى لأن أرى .. أرى سيلاً من القذائف النارية كأنها النيازك ينطلق من المدينة الصحراوية قاصدًا المكان الذى كنا فيه .. هذه القذائف

غريبة جدًا .. إنها لا تسقط كما تسقط القنبلة العادية .. بل هى تنتشر أولاً كأنما هى مليئة بسائل نارى ، ثم تشتعل كل البقعة بلهب أخضر عجيب .. يلى هذا انفجار يذكرك بالبراكين التى تراها فى السينما ..

كان هذا كافيًا كى أدخل ..

وفى اللحظة التالية انغلقت فتحة الكهف وصرنا بالداخل ..

* * *

٥ ـ أبو العتاهية وآخرون ..

لم يكن المشهد عبارة عن مدينة داخل الجبل كما توقعنا ..

كان كهفًا بالفعل .. لا يميزه شىء إلا عشرات المشاعل ، وكان هؤلاء الرجال متناثرين فيه .. وكانوا ...

فجأة ارتج المكان لأن قنبلة على ما هو واضح ارتطمت بالكهف من الخارج ..

سقطت على الأرض .. وسقطت (سلمى) .. لكن بدا أن قوانين الجاذبية لا تؤثر فى هؤلاء ..

قلت وأنا أنهض :

ـ « سيهدمون هذا المكان على رءوسنا .. »

قال أحدهم وهو يجلس على الأرض :

ـ « لا .. الجبل أصلب مما تتوقع .. ثم إنهم لا يملكون أدنى فكرة عن كوننا بالداخل .. هم يتوقعون أننا متوارون

فى مكان ما بالخارج .. هكذا نتعامل معهم .. كل جبل هنا غرفة عمليات نخرج منها ونفعل ما نريد ثم نعود لنتوارى فيها .. »

وقال آخر :

ـ « وفى كل مرة يتساءلون : أين ذاب هؤلاء ؟ لكن برغم كل شىء تظل الفتحة واضحة لمن يدقق البحث .. لا بد من واحد منا يأتى فيما بعد ليسدها بعناية من الخارج .. »

برغم كل شىء فأنا سعيد بكونى أسمع العربية .. عربية لا أنسى أبدًا أنها عربية مجرة أخرى ، لكن هذا لا يمنع شعور الألفة الذى شعرت به ..

نسيت أن أصفهم لكم .. كانوا مجموعة من الثوار .. كيف عرفت هذا ؟ لأننى عبقرى طبعًا .. كل منهم يحمل بندقية آلية وقد لف حزامين من الطلقات على كتفيه على شكل X على طريقة الأخ (زاباتا Zapata) ، وعلى وجهه ملامح العيش الخشن .. ذقون غير حليقة .. قسمات سمراء قاسية .. ثياب هى خليط من عدة أجناس معًا .. هناك كوفية منقطة أو اثنتان ..

ومد اثنان ساعدين قويين ، وتصافحا ثم تعانقا وتبادلا القبلات على الخدين :

ـ « نجحت العملية ! »

ـ « حمدًا للَّه !! »

لا يحتاج الأمر إلى مترجم كى يعرف أن هؤلاء القوم هم الذين دبروا الانفجار داخل تلك المدينة الصحراوية ..

الآن جاء وقت السؤال المهم .. السؤال المهم الذى وجهوه لنا :

ـ « من أين جئتما ؟ »

قالت (سلمى) وهى تنفض الرمال عن شعرها :

ـ « من ذلك المعسكر .. ذلك الـ ESF .. ركبنا فى مؤخرة شاحنة للفرار ووثبنا قبل أن تدخل المدينة .. »

ـ « أنتما سعيدا الحظ .. فررتما فى الوقت المناسب بالضبط .. لقد كانت هذه الشاحنة ملغمة وقد انتظرنا هنا حتى مرت من البوابة ثم ... هوب !! »

شعرت بركبتى تتهاويان من تحتى .. إذن كانت الشاحنة تحوى أشياء أخرى غير العظام .. أشياء لا تقل هولاً ..

وقال آخر :

ـ « هل رأيتما ما كانت الشاحنة تحمله ؟ »

ابتلعت ريقى ولم أرد :

ـ « حسن .. لقد دفنا تلك العظام فى الصحراء مع جنود عديدين منهم .. »

قالت (سلمى) :

ـ « لا أدعى أنى أفهم شيئًا فى حروب العصابات ولا الاستراتيجية .. لكن ما جدوى إطلاق البنادق الآلية إذن ؟ لقد حسبنا أنكم ستهاجمون أو تحمون ظهر زميل لكم بالداخل .. »

ضحك الرجل الذى بدأ الكلام طويلاً وقال :

ـ « هذا توقيعنا !! حتى لا يعتقدوا أن ما حدث كان بفعل حادث .. نقول لهم إننا الفاعلون .. »

ثم صافحنى بيد تشبه جرافة البلدوزر لو أن هذه كانت شديدة الخشونة ، وقال :

ـ « أنا (أبو العتاهية) .. وأنت ؟ »

بدا لى الاسم غريبًا .. هو على الأرجح اسم حركى .. قلت له :

ـ « أنا (سالم) .. هذه زوجتى (سلمى) .. »

قالت (سلمى) فى مودة :

ـ « مساؤكم حليب .. »

تلك التحية المستعملة فى عالمهم ، والتى ما زلت أشعر بأنها ذات طابع سوقى ، بينما تصر هى على أن (مساء الخير) أكثر سوقية ..

سأل الرجل :

ـ « ومن أين جئتما ؟ »

آه ! سأفسد كل شىء إذن .. لكنه قاطعنى قبل أن أرد ملوحًا بيده :

ـ « لا عليك .. كلنا لا نعرف من أين جئنا .. لكننا هنا .. »

قالت (سلمى) وهى التى لم تعتد أن تحبس أسئلتها كثيرًا :

ـ « لا أزعم أن هذا يضايقنى ، لكن ما الذى يدعوكم للثقة بمن ترونه لأول مرة منذ ربع ساعة ؟ »

ـ « لهجتك .. هذه اللهجة لا يتكلمها إلا عربى مثلنا .. ولو تصنعها أحدهم لفضح نفسه .. كما أنه لا يوجد جواسيس بيننا .. هؤلاء القوم لا يستخدمون الجواسيس .. »

نظرت إلى الكهف ، فوجدته ينتهى عند هذا الحد .. لا يوجد امتداد .. هذا مكان جيد للاختباء لكن أين حياتهم ذاتها ؟ أين قراهم ؟ أين واحاتهم ؟ أين نحن بالضبط ؟

لسبب ما عرفت أن على ألا أسأل كثيرًا ، وقد خمنت (سلمى) الشىء ذاته .. هم اعتبرونا منهم بشكل ما ، واعتبروها بديهية .. لو بدأنا فى الأسئلة سيعرفون على الفور أننا متسللان .. ربما جاسوسان .. ولتكونن غضبتهم مرعبة ..

من الأفضل أن نستمر فى أداء الدور الذى برعنا فيه .. لا نتكلم على الإطلاق ونجيب عن الأسئلة بأسئلة ..

قال أحد الرجال :

ـ « أعتقد أنه من الأفضل أن نتفرق .. »

ثم أشار لنا :

ـ « أعتقد أن (جمشيد بن عباس) يجب أن يراهما .. »

دنت منى (سلمى) وهمست فى شىء من التوتر :

ـ « ما هذه الأسماء الغريبة ؟ »

ـ « ليست غريبة .. إنها أسماء من أعلام العرب .. (جمشيد) عالم من علماء الجبر .. »

قالت فى غيظ هامس :

ـ « يا للعبقرية ! إن هذه الأسماء موجودة فى كوكبى كذلك .. بل هى التى حددت تاريخ الكوكب كله ، لكن ألا ترى من الغريب أن تتخذ هذه كأسماء كودية لمجموعة من الثوار ؟ »

تذكرت أن وضع العرب فى عالم (سلمى) يخطف الأنفاس .. إنهم قوة عسكرية واقتصادية مرعبة .. (أ . ع . م) أو (أمة عربية متحدة) .. وبالتأكيد هناك من العلماء العرب من لم نسمع نحن عنهم فى أرضنا .. لكن اعتراضها وجيه بحق ..

ما معنى هذا ؟

هنا وجدنا الرجال يشيرون لنا كى نلحق بهم .. إلى الجهة الأخرى من الكهف ..

فتحة كالتى دخلنا منها .. يزاح الغطاء فترى الصحراء من جديد .. هذه المرة وقد بدأت تستحم بلون الفجر الوردى .. يخرج أول الرجال جسده من الفتحة ويتلصص حوله ، ثم يزحف إلى الخارج ونتبعه نحن ..

فى الخارج كنا على الجانب الآخر من التل ، لكن الحقيقة هى أننا كنا على ارتفاع كبير .. لم أدرك هذا إلا حين ارتقيت التل أكثر وألقيت نظرة ..

من الغريب أن المدينة الصحراوية تحولت إلى بقعة صغيرة عند قدمى ، وبدا لى هذا غريبًا .. إن الكهف لم يبد لى بهذا الاتساع قط ..

خرجنا أربعة من الكهف كما ترى ، فعكف آخرنا على سد الفتحة .. أولاً يضع قطعة من الورق المقوى ليسد بها الفتحة ، ثم يهيل عليها بعض الرمال المبتلة المعجونة بالماء من قارورة يحملها ، ثم يضع بعض نباتات الصبار .. حين تجف هذه مع الشمس سوف يكون من العسير تبينها إلا لعين مدربة تعرف ما تبحث عنه ..

لا أعرف كم من الوقت مشينا لكن الشمس كانت قد بدأت تعتلى السماء ..

كنت أفكر .. ماذا لو ظهرت طائرة عمودية جديدة ؟ لقد مررنا بموقف مماثل ، ووجدناه سيئًا بما يكفى .. ماذا يضمن لهم أمن هذه المسيرة فوق الرمال مكشوفين كنمل على مرآة ؟

قالت (سلمى) وقد عرفت ما أفكر فيه :

ـ « يبدو أنهم يعرفون أماكن ومواعيد تلكم الدوريات .. »

وتوقفت عن الكلام ، لأن أحد الرجال كان يفتح فجوة من الرمال المزيفة والصبار فى كهف ..

هؤلاء القوم يجدون طريقهم ببراعة حقًا ، لكن أية حياة هذه ؟

★ ★ ★

والآن دعنى أقدم لك الأخ (جمشيد بن عباس) ..

أولاً هو مسن جدًا كما ينبغى أن يكون .. لحية طويلة بيضاء على صدره ، وغطاء رأس عربى (شماغ) يغطى به رأسه من دون عقال .. وجه مسن مفعم بالتجاعيد .. ربما يذكرك بلحاء شجرة عجوز فى مدرستك القديمة .. لكن تحت هذا الرأس الواهن هناك جسد قوى لم تذبل عضلاته بعد .. على الأقل هو أقوى من جسدى أنا .. ولدرجة ما كان

منظره يذكرنى بصورة (أنتونى كوين) فى دور (عمر المختار) ..

جواره تجد (الفارابى) و(أبو الأسود الدؤلى) و(الخليل ابن أحمد الفراهيدى) .. هكذا أسماؤهم التى عرفتها فيما بعد مما يدل على أن ملاحظتنا كانت صائبة .. لن تجد كل هذه المجموعة من أعلام العرب فى مكان واحد مهما حاولت .. إلا فى الموسوعات طبعًا ..

كانوا مدججين بالسلاح يفترشون الأرض .. وكانت هناك أقداح قهوة و(دلة) .. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الرجال .. وكان سقف الكهف مجوفًا بطريقة تجعله أقرب إلى مدخنة .. ويبدو أن هناك نظامًا ما للتخلص من الدخان وإدخال الهواء .. بدائى لكنه فعال ..

يبدو أن هذا هو مقر القيادة الرئيسى .. كل شىء يوحى بهذا ..

نظر لنا (جمشيد) من تحت حاجبيه الكثين ، وقال :

ـ « السلام عليكما .. من أين جئتما ؟ »

كان له صوت عميق ملىء بالحكمة .. صوت لا يجب أن تمزح معه .. لا تستطيع المزاح معه .. كانت ليلة منهكة ولم يغمض لنا جفن منذ ساعات ، لذا قلت كلمات غبية على غرار :

ـ « لسنا من هنا .. نحن من هناك .. تسألنى لماذا جئنا من هناك .. أقول لأن هنا أفضل من هناك .. »

هراء كثير من هذا الطراز ، وكان هو ينصت ويهز رأسه كأنما يصدق كل حرف لكن الشك فى عينيه العجوزين صار عادة ..

قال أحد مرافقينا :

ـ « إنهما فرا من معسكر الـ ESF .. ركبا شاحنة ترجلا منها قبل المدينة .. »

ـ « إذن هما مجدودا الحظ .. لو بقيا بضع دقائق لانفجرا .. »

ثم ناول كلاًّ منا قدحًا .. وأمر بمن يصب لنا القهوة العربية فى الأقداح .. فلما فرغت من قدحى عاد الرجل يصب فيه المزيد .. قالت لى (سلمى) همسًا :

ـ « لو اكتفيت هز القدح حتى لا يعيد ملأه لك .. »

ما هذا المكان ؟ أسماء عربية وتقاليد عربية تمارس بدقة أمينة .. ثمة خاطر يسيطر علىّ .. هؤلاء القوم يجاهدون لاهثين للاحتفاظ بهويتهم .. إن هذه الأسماء هى صورة رمزية لمن ينشب أظفاره فى تراب أرضه كى لا ينتزع منها ..

ظل الرجل ينظر لنا بعض الوقت ، ثم قال :

ـ « هل ترغبان فى المشاركة ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

دون أن ندرى ما هذا الذى نشارك فيه .. لكنى احتفظت بسياسة الموافقة على أى شىء كى لا أسأل ..

قال الرجل :

ـ « إنهما متشابهان كتوءمين .. »

فعلاً تعالت أصوات الرجال تؤكد أن نعم .. هذا غريب .. حقًّا ..

ـ « وملامحهما تختلف عنا .. بشىء من المعالجة يمكن أن يبدوا منهم .. هل أنتما أخوان ؟ »

قلت فى حرج :

ـ « زوجان .. »

ـ « هذا غريب .. لا يوجد ما يدعو لتشابه الأزواج إلا فى ظروف نادرة .. عندما يكون تفاهمهما مطلقًا .. »

هنا سألنى أحدهم وهو من يدعونه (سلمان) :

ـ « هل تتكلم لغة غربية ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « نعم .. الإنجليزية .. بالفعل .. »

ابتسم الوجه العجوز وقال :

ـ « هذا يرجح الكفة أكثر .. لا أحد منا يجيد لغة غريبة .. هذه نقطة مهمة .. ثم إن جسديهما من القياس ذاته .. »

ثم أشار لنا إلى بعض الأغطية على الأرض .. وقال بلهجة آمرة :

ـ « أنتما منهكان .. الآن تنامان وعند الاستيقاظ تعرفان ما يجب عمله .. »

بالطبع لم تكن بنا من حاجة إلى هذا الأمر .. ولم نغرق فى التفكير طويلاً لأننا حين اتخذنا وضعًا أفقيًا تصرفنا كتلك الألغام النازية : التى لم تكن تنفجر إلا حين تميل نوعًا إلى المستوى الأفقى .. وانفجارنا كان غطيطًا وخليطًا من الأحلام ..

فقط أذكر أن آخر كلمة قالتها العزيزة (سلمى) :

ـ « هل لاحظت هذا المدعو (سلمان) ؟ »

قلت فى تعب :

ـ « م م م م ؟ »

ـ « يبدو لى أن هذا هو اسمه الحقيقى لا الحركى .. اسمه (سلمان) .. ألا ترى شيئًا غريبًا ؟ »

ـ « م م م م م .. وما فى ... م م م .. ذلك ؟ »

ـ « إنه يبتسم ابتسامة بزاوية فمه اليسرى !! ابتسامة تبدو لى مألوفة .. »

* * *

٦ـ التنكُّر..

حين صحونا عند العصر ، قدموا لنا وجبة تتكون من الفول المهروس .. وكان هناك الكثير من التمر .. معنى هذا أن لهؤلاء القوم مكانًا آخر غير هذا .. ربما واحة قريبة ..

لم يكن المكان مريحًا .. ربما هو خانق كذلك ، يذكرك كثيرًا بشبكة المجارى التى كنا نعيش فيها فى أرض المغول ، وإن كانت الكهوف أنظف وأعطر رائحة من المجارى طبعًا ..

كنت فى حاجة ماسة إلى شخص يجلس معنا ونبدأ فى سؤاله .. من البداية .. قل لنا يا أخى : ما معنى كذا وكذا ؟ لماذا يبدو كذا كذا ؟ ما اسم اللعبة وما قواعدها ؟

لكننا لا نجرؤ أبدًا .. فى هذا العالم وسط هذه الأحداث يسهل اعتبارك مجنونًا ـ لو كنت سعيد الحظ ـ أو جاسوسًا ..

★ ★ ★

عند الغروب ظهر (جمشيد بن عباس) .. أين كان ؟ لا أدرى لكننا لم نره فى الكهف لدى استيقاظنا ..

كانت ثيابه قد اختلفت قليلاً وإن كان مدججًا بالسلاح ، وقد التف حوله عدد من الرجال ، سأعرف أسماءهم فيما بعد. وإن كانوا يحملون أسماء مثل (امرؤ القيس) و(جابر بن حيان) ..

ابتسم لنا وبصعوبة يمكنك أن تعرف أن هذا الأخدود الذى ظهر فى ملامحه ابتسامة .. وقال :

ـ « نمتما جيدًا ؟ لكن .. هل تحبان (فيروز) ؟ »

طبعًا كان هذا آخر سؤال يمكن أن نتخيله فى التاريخ .. بالصدفة كلانا يعشق (فيروز) لكن ما أهمية هذا السؤال الآن وهنا ؟

مد أحد الرجال يده إلى جهاز عتيق وضغط على زر ، وعلى الفور تصاعد الصوت الرخيم يحكى عن (شادى) الذى (ركض يتفرج) وهو مازال (بعد صغير عم يلعب عالتل) ..

كان الجهاز فى أسوأ حال ، حتى لم يكن يصلح إلا كمبراة ، كما أن الحجارة الجافة المثبتة إليه تم غليها عدة مرات .. دعك من آثار العض التى تدل على محاولة إطالة عمر تكررت كثيرًا ..

قال (أبو العتاهية) وقد لاحظ دهشتنا :

ـ « نعم .. لاتوجد حجارة جافة فى أى مكان .. لكننا سرقنا عددًا منها منهم منذ سنين .. »

قال (جمشيد) وهو ينظف سلاحه :

ـ « هناك جولة اليوم .. حوالى مائتين قادمون .. نعتقد أنكما قادران على الاندماج بينهم .. نريد معرفة كل شىء عن العرض .. ماذا ستريان ؟ »

تبادلت و(سلمى) النظرات ..

الحقيقة أننا لانفهم شيئًا على الإطلاق ..

هنا جاء أحد الرجال يحمل ثيابًا نظيفة مطوية بعناية .. هناك شعر مستعار أشقر وأشياء أخرى لا أعرف ما هى ..

قال (جمشيد) دون أن ينظر لنا :

ـ « ستدخلان الآن إلى إحدى الفتحات الجانبية لتستبدلا هذه الثياب بما تلبسان .. ثمة لمسات نضيفها نحن .. لكن لاتنسيا أننا فقدنا الكثيرين من رجالنا كى نحصل على هذه الثياب .. حافظا عليها .. »

وهكذا دخلنا أنا و(سلمى) أحد الشقوق فى الكهف ، وعلّق

لنا أحدهم مشعلاً كى نرى بعضنا .. كنا فى حالة مروعة من الغباء لكننا لانجسر على توجيه أسئلة .. ثيابنا واحدة على كل حال .. قميص بلون خاكى وسروال (جينز) أزرق .. ثم حذاءان رياضيان ..

فرغنا من ارتداء هذا كله ، ثم إن (سلمى) ثبتت الشعر الأشقر المستعار على رأسها ، فكانت النتيجة لا بأس بها .. صحيح أن بشرتها خمرية ، لكن طقس الصحراء هذا يجعل أية بشرة تحترق ..

ثبتت أنا الجمة على رأسى ، ولم أر نفسى لكنها هزت رأسها بمعنى أنه لا بأس بى ..

ثمة أشياء فى الجيب .. مددت يدى أبحث ، فوجدت بطاقة بلاستيكية مزودة بدبوس تصلح لتعليقها على الصدر .. فهمت الآن لماذا رأى الرجل أنه لامشكلة .. إن الصورة لرجل أشقر ، مع كثير من الظلال ورداءة التصوير تجعل تعرف ملامحه مستحيلاً .. فقط كانت البطاقة المغلفة تحمل شارة ESF .. لاحظت أن الجنسية تشير إلى أننا (ولايات شرق) .. لم أفهم معنى هذا ..

فيما بعد عرفت أن أهمية (ولايات شرق) هذه أن بوسعنا أن نتكلم إنجليزية غير متقنة .. فلا يفتضح أمرنا لأن إنجليزيتنا لن تخدع غربيًا بالتأكيد ..

وكذا خرجنا إلى القوم فأبدوا الكثير من الاستحسان ..

أضافوا بعض اللمسات مثل كاميرا حول كتفى .. وحقيبة ظهر لـ (سلمى) .. وزجاجتى ماء لكل منا .. ثم أضافوا أسوأ جزء فى الموضوع .. عدسات ملتصقة زرقاء اللون .. لقد تبدل منظرنا تمامًا ، وأستبعد أن تتعرفنى (سلمى) لو لم ترنى أتنكر أمامها ..

هؤلاء القوم مستعدون تمامًا .. لكن يمكن القول إن هذه الأشياء كلها مسروقة من غربيين حقيقيين .. ربما ميتين كذلك .. هذا مفهوم .. وإن كنت لا أحب كثيرًا أن أسأل أسئلة بصدد مصدر العدسات الملتصقة !

كنت قد كونت ـ بعبقريتى المعهودة ـ بعض الاستنتاجات .. هم يريدون منا أن نتنكر كغربيين .. لماذا ؟ طبعًا لنندس .. نندس فى ماذا ؟ فى الجولة التى بها نحو مائتين ..

حقًا إن الترتيب المنطقى يقود إلى الحل دائمًا !

قال (جمشيد) :

ـ « لا بأس .. لاحظا كل شىء .. (أبو العتاهية) سيقودكما إلى هناك .. »

ثم انصرف إلى أحد رجاله ، وبدا كأنما نسى الموضوع تمامًا وفتح موضوعًا آخر ..

* * *

تحت ستار الظلام نتسلل فى الصحراء ماشين خلف (أبو العتاهية) .. النجوم تعطى ضوءًا لا بأس به أبدًا .. تشعرك بالألفة برغم أنك لا تميز نجمًا واحدًا مألوفًا لك .. لابد أن (وعاء الدب الأكبر) هنا يدعى (طشت غسيل التمساح) أو أى شىء مماثل ..

كان هناك ضبع نظر لنا من بعيد ، ثم قرر أنه بائس وحيد ففضل الانصراف ..

لا بد أننا مشينا نحو نصف ساعة .. كنا فى الحقيقة ندور حول تلك المدينة الصحراوية الغامضة .. رأسانا يزدحمان بالأسئلة لكننا لا نجرؤ ، وعلى كل حال كنا قد قدرنا أن هذه الجولة ستشرح لنا كل شىء .. ستلعب دور كتاب التاريخ الذى قرأته أنا فى أرض المغول فأعفانا من أسئلة مربكة ..

قال لنا (أبو العتاهية) وهو يتقدمنا :

ـ « النصيحة المهمة هى : لا تتبادلا أية كلمة عربية .. أنتما غربيان فى كل شىء .. ثم إنكما وحيدان تمامًا ولو وقعتما

فى أيديهم فلا علاقة لكما بأى شىء .. لن تعرفا كيف تجداننا .. »

ثم أشار إلى الكاميرا وقال :

ـ « هذه لا تعمل .. لكنها تطلق ضوءًا .. حاول أن تبدو فضوليًا .. »

هذا الجزء بالذات لا يحتاج إلى توصيات .. لن يحتاج إلى أى جهد منا .. إن الفضول يقتلنا بالفعل ..

أخيرًا رأينا مشهدًا عجبًا ..

كان هناك سياج من السلك .. سلك مضلع يذكرك بالذى تثبته فى دارك لتتقى البعوض .. ومن بعيد ـ على مسافة ثلاثين مترًا ـ كانت هناك طائرة متوسطة الحجم .. لها ذات منظر حاملات القوات التى تراها فى الصور .. إنها تخص الجيش .. جيشًا لا يعلم كنهه إلا الله .. وعلى بعد أكبر كانت هناك طائرتا هليكوبتر وطائرة تبدو لى كالمقاتلات ..

كانت الطائرة المعنية واقفة تهدر كالوحوش ، غارقة فى الأضواء .. وأدركت أنها وصلت من فورها .. كانت هناك حركة غير عادية ، مع عملية تقريب سلم على عجلات من بابها ..

ـ « بالضبط فى الموعد .. »

قالها (أبو العتاهية) وهو يدنو من السور ويثبت أظفاره فى فجوات السلك ..

ثم نظر لنا وقال :

ـ « حين ينزل الركاب تدخلان .. لا توجد حراسة هنا ، ويسهل أن تندمجا وسط الفوج .. الركاب سينتشرون فى كل مكان ومن المستحيل مراقبتهم .. كما أننا نعرف أنهم لا يجرون حصرًا لهم .. الجولة تنتهى غدًا فى نفس الوقت .. سأكون هنا لأساعدكما على الرحيل .. »

هتفت (سلمى) :

ـ « تتكلم كأنه لا يوجد سلك .. »

ابتسم ومد يده ليرفع جزءًا من السور .. واضح أن هؤلاء القوم مزقوا أجزاء من السياج من قبل ، صانعين بابًا يدخلون منه متى أرادوا .. وحين يعود السلك لمكانه ويثبتونه بالخيط يصعب أن تلاحظ أنه ممزق ..

أخيرًا بدأ الركاب ينزلون من الطائرة ..

بالفعل سادت الفوضى ، وبدا كأن الساحة أمامنا تحولت إلى نوافذ الدرجة الثالثة قبل مباراة كرة قدم .. هم مائتان لكنهم يقومون بما يقوم به ألف من صخب وفوضى ..

وفى هذه اللحظة همس (أبو العتاهية) :

- « هيا .. لا تنظرا للوراء .. كونا طبيعيين .. »

يبدو أن للرعب دورًا مهمًا فى اتخاذ القرارات الحاسمة .. لا أعرف كيف ولا متى وجدنا نفسينا بالداخل ، ولا كيف اجتزنا المسافة الحرجة بين السور والزحام ، لنتحول من (متسللين) إلى (ربما كان هذان معنا من البداية) ..

ولم ننظر إلى الوراء ..

الزحام كله من الغربيين .. والأجمل هنا أن أكثرهم يلبسون مثلنا .. هذه ثياب صالحة للرحلات أو لغرض (السافارى) .. وقد ذكرنى منظرهم بالسياح الواقفين عندنا خارج معبد الكرنك بانتظار الدليل الذى يلوح لهم طالبًا أن يتبعوه ..

سرعان ما اندمجنا وسط الزحام .. وكانت هناك كلمات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية .. فتاة تلتقط الصور لصديقتها وصديقها .. رجل يجمع بعض الرمال فى كيس .. مزاح .. بعض العجائز الأثرياء من طراز المومياوات إياه الذين نراهم فى مصر ، والذين يجمعون المال طيلة حياتهم لينفقوه فى رحلة العمر .. وبعض السياح الشباب الذين لا ينفقون أكثر من ربع دولار يوميًا والذين تعرفهم مصر كذلك ..

بعد قليل ظهر رجل يبدو أنه عسكرى ، وكان يضع (بادج) صغيرًا يقول : ESF وأمسك بمكبر صوت وقال بإنجليزية جيدة :

- « إن المركز الصحراوى الرئيسى يرحب بكم .. »

وكررها ثلاث مرات إلى أن انتهت الضوضاء وصار قادرًا على سماع نفسه ..

- « .. ستكون هذه رحلة الأحلام ، وقد خصصنا لكم خيامًا مكيفة ووجبة عشاء ساخنة .. تبدأ الجولة صباحًا ، إلا إذا رغب بعضكم فى استكشاف الصحراء ليلاً .. هناك طائرات عمودية مخصصة لهذا .. »

ثم دس يده فى جيبه وقال :

- « هل من أسئلة ؟ »

رفعت إحدى الفتيات يدها وبلهجة أمريكية سألته :

- « كيف يتم تمويل المشروع ؟ هل أنتم جهة حكومية ؟ »

قال فى (ألاطة) لا بأس بها وهو يدير عينيه فى وجوهنا :

- « أكثر تمويلنا من الجامعات .. ومن ESF .. وبعض النفقات يتم تدبيرها برحلات سياحية باهظة الثمن مثل هذه ! »

تعالت ضحكات عصبية لا مبرر لها .. واضح أنها دعابة قوية فعلاً ..

قال أحد الواقفين ضاحكًا :

ـ « خمسمائة (كومون) عن الفرد .. هذا ليس مبلغًا زهيدًا .. »

قال الرجل الذى يبدو أنه عسكرى :

ـ « أنا لا أحدد الأسعار .. لكن ما أعرفه حقًا هو أن كل من زارنا لم يشعر بعد الزيارة بأنه دفع أكثر من اللازم .. والآن هل هناك من يرغبون فى استكشاف الصحراء ؟ »

ارتفعت بعض الأيدى ، فرفعت أنا و(سلمى) أيدينا .. كنا فى حاجة إلى الفهم .. وعدم ترك فرص لهذه العملية ..

ـ « جميل .. هناك خمسون منكم .. سنحاول ترتيب الطائرات اللازمة .. »

★ ★ ★

فى المقصف انتظرنا فى طابور طويل حتى جاء دورنا .. كان الطعام الذى حملناه فى صينية هو نوع من اللحم الممهوك أو الممزق .. لا أعرف بالضبط .. مع كوب من الكولا الباردة وبعض البطاطس المحمرة ..

لم أتحمس كثيرًا للحم لأننى لا أعرف نوعه .. ربما هم يأكلون الذئاب على العشاء فى هذا الكوكب ، والأدهى أن تكون ذئابًا مخنوقة كذلك !! لكن البطاطس كانت جيدة .. وعرفت أن (سلمى) أحبتها كذلك ..

ترى كيف يبدو تنكرنا فى الضوء الساطع داخل المقصف ؟ لحسن الحظ أنه لا أحد ينظر إلى الآخر ..

بعد العشاء تجمعنا حول الطائرات الهليكوبتر ، وقد قسمونا إلى مجموعات ..

بدأت طائرتنا ترتفع .. ترتفع .. دورة حول المدينة التى لم تظهر معالمها بوضوح .. مجرد نقاط لا حصر لها من الأضواء .. ثم ننطلق فى السماء الشاسعة التى تملؤها ثقوب النجوم .. متى قرأت عن الثقوب فى السماء ، والبرق الذى يحاول أن يرفوها كأنه إبرة خياط ؟ متى كان هذا ؟ فى قصة أطفال ؟ ديوان شعر ؟ من المستحيل أن أتذكر الآن ..

ومن تحتنا بدت الصحراء الغامضة المسربلة فى السواد .. كأنها طلسم لا قبل لأحد بفتحه ..

(سلمى) جوارى .. تدنو منى أكثر وتهمس بالإنجليزية (على سبيل الاحتياط) :

ـ « هل تشعر به ؟ هل تحسه ؟ »

فألمس يدها .. ألثمها وأصمت .. الليل والصحراء والصمت وهدير المحرك .. لا بد أن شيئًا تحرك فيها كما تحرك فى .. ليس هذا وقته ، لكن العواطف كالعضلات تبحث عن لحظات تستجمع فيها أنفاسها .. لا يمكن أن تكون الحياة كلها تخطيطًا ومؤامرات ومحاولات للفهم والنجاة بالحياة .. لا بد من لحظة ما يتقارب فيها رأسان يرمقان الليل ..

تقول لى :

ـ « منذ متى لم تقل إنك تحبنى ؟ »

فى الحقيقة لا أذكر أننى قلتها على الإطلاق ـ هل تذكر أنت ؟ ـ لكنى أكذب فأقول :

ـ « منذ راح جهازك هذا يلقينا من حفرة لحفرة .. ومن بركان لبركان .. لا بد من كوكب ما يصلح لالتقاط الأنفاس .. »

ـ « لقد بدأت أعتقد أن عالمى هو أفضل العوالم المحتملة .. »

الطائرة تحلق فوق تلال لا نعرف عددها ، ولا نهايتها ..

ثم ...

ظهر وميض نارى من على أحد التلال ...

وشهق البعض وصرخ البعض .. على حين صاح الطيار :

ـ « تماسكوا ! إن صاروخًا حراريًا يتجه نحونا !! »

* * *

٧ـ الجـولة ..

ـ « يا ساتر يا رب ! »

دوت الصيحة من (سلمى) وهى تتكور حول نفسها .. لو أصابنا هذا الصاروخ الحرارى فلن نعرف هذا .. طريف أن تتحول إلى فتات من اللحم المشوى تقضمه فئران الصحراء ، بعد ثانية من كلامك عن الحب والعوالم المحتملة ..

فيما بعد سيكون لى أن أقلق بصدد من سمعوا (سلمى) تصرخ بالعربية .. فيما بعد ..

الطيار يرتفع بحركة عصبية ، ثم يأتى بحركة مناورة جعلتنا نرتطم ببعضنا .. والبطاطس المحمرة تصعد إلى الحلوق .. لابد أنه يقوم برسم حرف Z الشهير الذى يتفادون به الصواريخ الحرارية ..

ثم رأينا وميضًا إلى اليسار ، والتفتنا فرأينا انفجارًا فى السماء يضىء المكان ..

ـ « استرخوا يا شباب .. لقد تفاديناه !! »

قالها الطيار ، فتصاعدت شهقات الارتياح .. وبكت بعض النسوة من فرط الإجهاد العصبى ..

لا أعتقد أن هذا المشهد جزء مدبر من الجولة لإمتاعنا .. هو حقيقى .. وأعتقد أن صاحب هذا الصاروخ ينتمى لـ (جمشيد بن عباس) ورجاله ...

ـ « من (إنترييد ـ ٣) إلى الإوزة الأم .. من (إنترييد ـ ٣) إلى الإوزة الأم .. صاروخ عند (دلتا إكس ـ ١٨) .. حول .. »

كانت هذه من الطيار طبعًا ..

وبعد دقائق ، أشار لنا إلى الأفق فى نغمة انتصار ، ورأينا ثلاث مقاتلات قادمة من بعيد ..

هتف الناس واحتشدوا يتزاحمون ليروا ما سيحدث من النوافذ .. لم تفعل المقاتلتان على الجانبين شيئًا ، لكن الوسطى انفصلت لـ (تتعامل معهم) ـ كما يقولون فى سلاح الطيران ـ والتعامل معهم يعنى أنها ارتفعت قليلاً وفى اللحظة ذاتها انطلق منها صاروخ طار ليضرب بالضبط النقطة التى هوجمنا منها ..

وهوب ! لا أعرف نوع هذه القنابل العجيبة ، لكنها تشبه ما رأيته من قبل .. الانتشار على مساحة واسعة .. اللهب

الأخضر .. رأيت مرة نارًا تشتعل فى كيروسين ، وقد بدا المشهد مماثلاً لهذا بالضبط ..

المهم أن الأفق تحول إلى نيران ، على حين حلقت المقاتلات مبتعدة ..

وهلل الركاب .. وراحوا يلوحون مودعين ..

تبادلت نظرة مع (سلمى) .. على الأرجح لم يحدث شىء للمهاجمين ، لأنهم ـ كما رأينا أمس ـ أطلقوا صاروخهم وتواروا فى إحدى الفتحات ..

ليتنا نفهم ما يحدث هنا ..

★ ★ ★

ـ « معذرة .. لكن اسميكما ليسا عندى على الإطلاق .. »

قالها الرقيب وهو يراجع الأسماء المكتوبة أمامه ..

كان علىّ أن أتمادى فى التمثيل أكثر ، فصحت فى عصبية :

ـ « ونحن كنا نحسب أنه لا أخطاء تحدث فى جهاز بهذا الحجم .. والآن قل لى .. هذا أنا أمامك وهذه زوجتى وقد دفعنا ثمن هذه الجولة .. لا تتوقع منا أن ننام فى الصحراء .. »

قال فى حرج وحزم عسكرى برغم هذا :

ـ « آسف .. لا أستطيع أن أقدم لكما خيمة .. »

رحت أضرب كفًا بكف ، على حين بدا الاشمئزاز على (سلمى) من (كل هذا الإهمال) .. فى النهاية جاء رجل أرفع رتبة فرأى المشهد ، وسمع ما يقال فهتف :

ـ « (سميث) .. لتكن أكثر مرونة .. أعطهما استراحة المقصف .. على مسئوليتى .. »

ـ « ولكن ... »

ـ « بقيت أربع ساعات على الصباح .. هذا لن يضير أحدًا .. »

استسلم (سميث) الأحمق ، على حين قلت أنا فى تبجح وأنا أصافح الأعلى رتبة :

ـ « أخيرًا هناك شخص ذو عقل فى هذه القاعدة .. حسبتهم لا يختارون إلا أمثال هذا الـ (سميث) .. »

لم يبد (سميث) سعيدًا بكلامى ، ولا ألومه على هذا .. إلا أنه اصطحبنا إلى غرفة ضيقة ملحقة بالمقصف .. هناك فراش واحد ، وحالة الغرفة توحى بأنها كانت استراحة للبط

أو وشق الأستبس .. لكنه على الأقل موضع يسمح لـك بوضع أفقى ..

انغلق الباب علينا فقالت (سلمى) فى مرح :

ـ « أنت ... »

ـ « حذار ! بالإنجليزية وبصوت خفيض .. »

قالت بالإنجليزية :

ـ « أنت ممثل بارع حقًا .. من يرك فى غضبك يقسم على أنك صاحب حق .. »

ـ « لدينا مثل يقول (الحقوهم بالصوت) ولا أعرف إن كان فى أرضكم أنتم أيضًا .. إذا كنت أنت الطرف الخطأ الذى لا حق له ، فعليك أن تكون الأعلى صوتًا والأكثر صراخًا .. هذا يقنع الناس بعدالة قضيتك ! »

على كل حال .. لقد نمنا .. وكان نومنا عميقًا بالفعل ..

لولا الطرقات الحازمة على الباب فى الصباح تخبرنا أن موعد الإفطار قد حان ..

★ ★ ★

فى الصباح بدأنا الجولة التى لا نعرف أى شىء عن كنهها ..

كان المكان ذا طابع عسكرى لا تخطئه العين ، لكن الجميع كان يتظاهر بالمودة واللطف ..

هذه المرة اقتادونا كالخراف الضالة إلى مبنى عملاق له ذات الطابع المميز للمتاحف فى كل مكان .. وفوقه اللافتة اللعينة ESF التى تطاردنا فى كل صوب .. اصطففنا على الباب ، ودنا منى رجل مسن يحمل زوجًا من الكاميرات وقال لى فى لهفة :

ـ « فيلم .. هل تعرف من أين أبتاع واحدًا ؟ »

ثم رأى البطاقة على صدرى فهتف فى مرح :

ـ « ولايات شرق ؟ أنت ابن وطنى إذن !! »

يا للمصيبة !

عاد يسألنى وهو غير عازم على أن يخرس :

ـ « لطيفة زوجتك .. وإن كانت تشبهك كثيرًا .. لا أقول هذا بصيغة الذم ! هل أنت من (وارسو) ؟ لا بد أنك يهودى مثلى .. »

ثم قال عبارة ما بلغة لا أستبعد أنها البولندية .. فهززت رأسى وقلت الكلمة التى فتح الله علىّ بها :

ـ « بوخارست) .. »

أعتقد أن هذا أقرب إلى الحكمة .. ما دمنا نتكلم عن الشرق ، وما دام هو بولنديًا فمن الحكمة أن أدعى الرومانية .. هز رأسه فى أسى وحيانا وابتعد ..

على الباب اصطففنا كما قلت لك ، ثم ظهر رجل له ذات السمت العسكرى ، وهتف :

ـ « سندخل فى مجموعات .. لا داعى لأن أذكركم بأن اللمس ممنوع .. »

ثم أضاف :

ـ « لقد أنفق صندوق الأنواع المنقرضة الكثير على هذا المتحف .. »

هنا بدأت أفهم .. (صندوق الأنواع المنقرضة) .. أو Extinct Species Fund .. من هنا جاءت الـ ESF التى تطاردنا فى كل مكان .. أعرف هذه المشروعات .. ما يوشك على الانقراض مثل دب الكوالا والباندا والنسر الأمريكى

الأصلع ، وما انقرض فعلاً مثل ذئب (تسمانيا) الذى لم يكن ذئبًا ولم يكن من (تسمانيا) ..

سمعت (سلمى) خواطرى (لا يوجد خطأ مطبعى هنا) فقالت :

ـ « أنت مخطئ .. لا تنس أن هذه أرض العظايا .. لا بد أن الموضوع يتعلق بالديناصورات .. »

صحيح .. نسيت هذا ..

طبعًا لابد فى المدخل أن نجد ذات الهيكل المعهود لـ (تى ركس) أو (Tyrannosaurus Rex) المحبب للأطفال .. لا بد من آثار أقدام على الطين الذى تحول إلى حفريات .. لا بد من نباتات متكلسة وعظام متحجرة لطائر (الإصبع المجنح) المثير Pterodactyl ..

ووثب قلبى طربًا .. أنا أحب الديناصورات .. من الذى لا يحبها ؟

وتقدمنا فى تؤدة إلى الداخل ..

كانت هناك خارطة كبيرة تحتل أهم موقع فى المكان .. ثم رأينا عينات متكلسة لا تعرف كنهها .. لا توجد هياكل

للديناصور لكن هناك هياكل عظمية آدمية واقفة وقد حفظت فى واجهات عرض ..

ثمة قاعات جانبية فى إحداها جمل كامل محنط .. لا أعرف .. هل انقرض الجمل فى هذا الزمن ؟

هناك ثياب عربية معلقة على مشاجب .. وأجزاء من خيام .. هناك قطع من تماثيل .. وأسلحة آلية صغيرة ..

هناك صور لمطربين نعرفهم .. ما معنى هذا ؟

قال المرشد وهو يتقدم الحشود الذين لا يكفون عن التقاط الصور :

- « فى الداخل هناك نماذج حية .. سندخل ولكن بهدوء من فضلكم .. إن الزحام قد يكون خطرًا .. تذكروا أن هذه العينات غالية جدًا ونادرة جدًا .. »

وفى هدوء مشى إلى ممر جانبى ، فمشينا وراءه ..

بالداخل كانت هناك نوافذ عرض .. وكان بداخلها .. أشخاص .. أحياء ..

النوافذ عملاقة جدًا مما يتيح أن يوجد بالداخل بيت صغير ، وأسرة كاملة مكونة من أب وزوجته وأولاده ينظرون لنا

فى خوف وتوجس وملل .. كانوا سود البشرة يبدو أنهم من إفريقيا ..

ثمة لافتة على الزجاج تقول : أوضح نموذج لـ Homo erectus .. تم العثور على هذه العينة فى (تنزانيا) ..

ألصقت (سلمى) وجهها بالزجاج وراحت ترتجف .. رآها طفل أسود بالداخل فاقترب منها وقد غلبه الفضول لكن أمه ركضت لتبعده ..

- « ممنوع لمس الزجاج يا آنسة ! »

قالها المرشد فى عصبية ، فابتعدنا ..

وفى واجهة أخرى كانت أسرة من الأستراليين البدائيين .. و...

هتفت (سلمى) بصوت مبحوح :

- « (سالم) .. هل فهمت ما هى العظايا المنقرضة ؟ إننا لا نتكلم نفس اللغة ! إن العظايا هى نحن ! »

* * *

٨ـ فلنفر من هنا ..

كنا فى حالة نفسية بالغة السوء ، ونحن نتقدم إلى الطائرة .. طائرة كبيرة نوعًا هى التى رأيناها أمس رابضة فى المطار .. لأين ؟ (أبو العتاهية) قال إن موعدنا فى الليل ، ومازال الليل بعيدًا ..

لقد ارتفعت الطائرة فى الهواء ، وبدأت تعلو باستمرار ..

لحسن الحظ كانت هناك مقاعد خالية وإلا لافتضح أمرنا لدى الصعود .. هذه الرحلات ليست تامة العدد فيما يبدو ..

ولم نتبادل الكلمات .. لم نفتح فمنا بكلمة واحدة ..

لأننا لو تكلمنا لانفجرنا فى شلال من الأسئلة والاحتجاجات والهستيريا ..

الليلة لو نجونا سنذهب إلى (جمشيد بن عباس) .. سنلقى بأنفسنا تحت قدميه نتوسل إليه أن يشرح لنا كل شىء .. لا تقل إن الحقيقة هى ما فهمناه نحن .. قل إننا غبيان .. قل إننا حماران .. قل أى شىء .. لكن من فضلك لا تقل ما نعرف الآن هو الحقيقة ..

ـ « يمكنكم أن تروا النيل لو نظرتم إلى الجانب الأيمن .. »

كان هذا صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته ..

تصاعد الكثير من (الواو) و(الياى) ونظر الجميع من النوافذ اليمنى ، حتى شعرت بأن الطائرة تميل مهددة بالسقوط ..

ـ « انهضى .. »

قلتها لـ (سلمى) فى كآبة لأن منظرنا بدا غريبًا الآن ..

نهضنا ونظرنا من النوافذ وأطلقنا الكثير من الـ (واو) بدورنا ..

دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته :

ـ « من الناحية اليمنى ترون الأهرام .. »

وتكرر المشهد من جديد بحماسة كبير ..

ـ « جوار الهرم الأكبر تجدون معبد (فيلة) و(الكرنك) .. »

ما هذا التخريف ؟ هل هذا من أنواع الخلط الشهيرة بين العوالم ؟ لكن لا .. ثمة شىء يقول لى إن هذا ليس خلطًا ..

ـ «والآن ترون أجزاء من سد (مأرب) .. وأطلال (بترا) .. ثمة آثار قرطاجية بالغة الأهمية لو... »

هنا لم تتحمل (سلمى) أكثر فهتفت :

ـ « لحظة .. أنت تجمع أقصى اليمين مع أقصى اليسار فى مكان واحد .. هذه الآثار مقلدة طبعًا ؟ »

لا أدرى كيف سمعها فقد دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته يقول :

ـ « بل هى أصلية طبعًا .. هذا عملنا هنا فى ESF .. لقد تمكنا من نقل هذه الآثار المهمة للحضارات الغابرة ، وجمعناها كلها فى مكان واحد .. هذا يسهل زيارتها وصيانتها ويحميها من التلف .. »

الآن نرى بقايا من الحضارة الآشورية .. وبعض بقايا الرومان فى ليبيا ..

ـ « يمكن القول إننا استبقينا بعض الأجناس بهدف علمى بحت .. لكن خطتنا مستمرة لجعل كل شىء تحت السيطرة .. »

أخيرًا انتهت الجولة ، فبدأت الطائرة تدور بالعكس لنرى نفس المعالم من جديد ..

بعد ساعة أو أقل كانت الطائرة تنحدر لتهبط فى المطار ..

وترجلنا أنا و(سلمى) شاعرين بحاجة ماسة إلى العثور على مكان نستجمع فيه خواطرنا .. مكان بلا بشر ..

وقف أحد العسكريين على باب الطائرة وهتف فى مكبر الصوت :

ـ « هناك وجبة عشاء جاهزة لكم ، بعدها جولة حرة قبل ركوب الطائرة الـ (شارتر) للعودة .. »

كانت الحماسة قد بلغت بالقوم مبلغها ، وراحوا يلتقطون الصور لكل شىء .. لاحظت أن هناك شعبية كبرى للرمال .. الكل حريص على أن يحتفظ ببعضها فى كيس ..

ثم جاء وقت العشاء ..

تناولناه فى شرود ، بعدها وقفنا فى المطار بينما الطائرة الضخمة التى سترحل بهؤلاء تدور ببطء على الأرض ، وصخب المحركات يصم الآذان .. يبدو أن تزويدها بالوقود قد تمَّ ..

إن فتحة السور هناك .. لو وجدنا اللحظة المناسبة لتسللنا إلى هناك ورفعنا السلك و...

فوجئت بالعجوز البولندى الثرثار إياه يقترب منا ومعه

فتاة .. فتاة من طراز أبيض الشعر أحمر الجلد رمادى العينين ، حتى لتشعر بأنها سلبية صورة تمشى على قدمين ..

قال لى بالإنجليزية :

ـ « معذرة .. أنت (بوخارست) .. هه ؟ »

قلت باسمًا فى عصبية :

ـ « وأنت (وارسو) !! »

رفع يد الفتاة وقال :

ـ « هذه (ناديا) من (بوخارست) هى الأخرى ! كانت تبحث عن رفقة فقلت لها إن مواطنيها هنا ! »

توارى الكون كله خلف غشاوة بينما الفتاة تضحك فى مودة ، وتنطلق فى حديث بالرومانية جدير بأن يخرج من فم الكونت دراكيولا نفسه ..

نظرت لـ (سلمى) ونظرت للفتاة ثم هززت رأسى بمعنى أننى لا أفهم .. إشارة غبية جدًا لا معنى لها .. ربما لو كنت أثبت جنانًا لاتهمت الفتاة بأنها نصابة وأن ما تتكلمه ليس الرومانية ..

وقف رقيب ما على باب الطائرة وصاح :

ـ « فليركب الجميع .. »

تأهب الجميع للصعود ، لكنى سمعت صوتًا يقول :

ـ « لحظة !! ثمة نقطة لا بد من استيضاحها .. »

نظر الجميع لمصدر الصوت .. كان هذا هو العجوز البولندى اليهودى ..

قال فى حماسة ضاغطًا على كلماته :

ـ « هذان الشابان .. لا أستريح لهما على الإطلاق .. يزعمان أنهما رومانيان وهما لا يعرفان حرفًا من الرومانية .. وأكاد أقسم إنهما لم يكونا معنا فى الطائرة عندما جئنا ! »

صاح صائح :

ـ « بالفعل .. لم نرهما قط .. »

هنا ـ كما فى الكوابيس ـ ظهر الجندى (سميث) الذى تشاجرت معه البارحة .. تدخل فى الكلام قائلًا :

ـ « بالفعل .. هذان لم يكن اسمهما فى الأوراق !! نحن لا نرتكب أخطاء .. لا تسقط منا أية أسماء سهوًا .. »

وهتفت عجوز شمطاء أخرى :

ـ « الفتاة كانت معنا أمس فى الطائرة العمودية .. وصاحت حين رأت الصاروخ بعبارة لم أسمعها من قبل بأية لغة !! »

هنا أدركت أننا وقعنا فى الشرك ..

لكن الشرك لن يكون السجن هذه المرة .. أنا أعرف ما يحدث لمن يقع فى يد الجماهير الغاضبة ..

كان الجميع ينظر لنا الآن .. حوالى مائتى سائح متحمس ، ومعهم عدد من رجال القاعدة أو المدينة .. لو كان الجهاز معنا الآن ! هذا وقت مناسب جدًّا لضغط الأزرار ..

بالفعل راحت أناملى تضغط على زر وهمى فوق قماش سروالى ..

★ ★ ★

فى اللحظة التالية حدث ما يمكن أن تسميه (أسلوب جريفث) فى الإنقاذ على اللحظة الأخيرة ..

لقد دوى انفجار مروع فى مكان ما من المطار .. وفى اللحظة التالية كانت سحابة كثيفة من الدخان تغلف الجميع ، وتفرق الناس فى رعب .. وتعالت عبارات (النجدة) و Help و Secours و ...

هنا شعرت بيد قاسية عنيفة كالمنجل تطبق على معصمى وسط الدخان ..

حدث الشىء ذاته مع (سلمى) على ما يبدو .. وشعرت بأننا نجر كالخراف إلى السور وأخيرًا وجدت الفتحة فاجتزتها ..

ـ « تمرغا ! بسرعة أيها الأحمقان قبل أن ينقشع الدخان ! »

كان هذا سهلاً لأن هناك منحدرًا ، وسرعان ما راح جسدانا يدوران فوق الرمال كأننا حزمة من الصبار الجاف .. ومعنا حزمة ثالثة بدأت أفهم أنها أبو العتاهية ..

أخيرًا وجدنا أننا نرقد فوق الرمال التى يبللها السواد والندى ..

لا بد أن تأثير اختفائنا كان دراميًا بالنسبة لهؤلاء القوم بمجرد أن زال الدخان ...

قال (أبو العتاهية) :

ـ « أعددت قنبلة دخان لاستعمالها لو ساءت الأمور .. ويبدو أننى كنت حويطًا فى هذا .. ما كانوا ليسمحوا لكما بالفرار مهما حدث .. »

ثم هتف وهو ينهض :

ـ « نبتعد الآن .. هناك فجوة كهف قريبة .. يجب أن نتوارى

قبل أن تأتى الطائرات العمودية .. للأسف افتضح أمر هذه الفجوة فى السلك .. »

رحنا نركض بين الرمال حتى بلغنا فتحة من تلك الفتحات المعالجة بعناية .. يزيل الرمال المعجونة .. ينزع الورقة المقواة .. ثم ندخل .. الخطر فى الدخول هو أنه مهما حاولت من الداخل ، فإن الفتحة تظل واضحة للعيان منتهكة .. بينما الفتحات التى تعالج من الخارج يستحيل اكتشافها ..

أخيرًا جلسنا فى الكهف المظلم ، فأشعل مشعلاً ما جعل الأمور أفضل ..

قال لى باسمًا :

ـ « فقدت شعرك المستعار يا صاح .. »

قلت له منهكًا :

ـ « لهذا خير من أن أفقد إحدى عينى .. »

بعد تفكير قالت (سلمى) :

ـ « لدينا عشرات الأسئلة .. »

قال وهو يضع بندقيته الآلية جانبًا :

ـ « نحن لدينا مئات الأسئلة لكننا لن نتكلم عن شىء إلا أمام (جمشيد بن عباس) .. »

للمرة الأولى أظهرت (سلمى) جهلها بقواعد هذا العالم وكانت عامدة :

ـ « هل هذا اسمه الحقيقى أم الحركى ؟ »

نظر لها فى حيرة ، ثم قال بصدق :

ـ « اسمه الحقيقى طبعًا .. (جمشيد بن عباس بن محمود) .. نحاول أن نبقى أسماء جدودنا حية ساخنة .. إن ابنى اسمه (فرناس) .. لهذا صار محتمًا أن يكون اسم ابنه ـ لو رزقه الله بابن ـ هو (العباس بن فرناس) .. »

قلت لـ (سلمى) مفسرًا :

ـ « رائد حلم الطيران .. »

هزت رأسها فى غيظ :

ـ « أعرف .. بالله العظيم أعرف .. لدينا واحد منه كذلك .. »

وأطبقنا شفاهنا على الكلمات .. وأخلدنا لصمت طويل اختلط بلحظات نوم عميق ..

* * *

9 ـ كيف بدأ كل شىء ..

ـ « الحقيقة يا (جمشيد) أننا لسنا من هذا الكوكب على الإطلاق .. لا أعرف إن كنت تصدق هذا أم تكذبه ، لكننا لا نطلب منك التصديق أو التكذيب ، ولا نبالى برأيك .. فقط نريد فهم ما يدور هنا .. »

كان (جمشيد) جالسًا على الرمال ، يجدل سلة صغيرة ، وقد جلس حوله طفلان ..

المكان كان واحة صغيرة .. لا .. لا أجسر على أن اسميها واحة .. لنقل إنها بئر جواره ثلاثة أكواخ من الشعر .. ثمة نساء هنا وأطفال ، وبضع أشجار النخيل ..

لم يبد عليه أنه سمع ما نقول .. فقط واصل جدل السلة ، وعيناه العجوزان المنهمكتان تحاولان قدر الإمكان أن تريا ما تقومان به .. ثمة نظارة ذات إطار من السلك مثبتة على أنفه ومن الجلى أنها لا تقدم له الكثير ..

الحقيقة أننى لم أفهم قط السر الذى جعل هذا المكان آمنًا بالنسبة لطيران قادر على الوصول إلى أى مكان .. ثم فهمت

أنه من الأماكن المختارة للجولات السياحية الطائرة .. لا أحد يهاجمه لأنه مكان محبب للسياح ..

من الواضح أن ما يعرفه هؤلاء القوم فى ESF هو أن هذه الواحة تضم بدويًا مسالمًا وزوجتيه وبعض الأطفال .. لكن الحقيقة كانت أنها ملتقى محبب لرجال المقاومة .. (جمشيد) ورجاله ..

كذلك لا يمكن الآن الجدل فى حقيقة أن (جمشيد) هو الحاكم الفعلى لهذا العالم السفلى المتشابك الرهيب .. إنه عقل على جسد ليس واهنًا تمامًا بينما رجاله عضلات ..

لكن ما يضايقنى الآن هو أن الرجل لا ينصت لنا على الإطلاق ..

قلت له بعد قليل :

ـ « (جمشيد) .. هل تسمعنى ؟ »

قال دون أن ينظر لى :

ـ « كلمات .. كلمات .. سمعنا منها الكثير فلم أعد أبالى بها .. ما الفارق بين أن تكون من هنا أو هناك ؟ ما المطلوب منى بالضبط ؟ »

وهو ما يقول بوضوح إنه لا يصدق حرفًا : نحن مجنونان أو عميلان .. وهو يميل إلى الرأى الأول لأن الجاسوس لا يكون بهذه الحماقة ..

قلت له :

ـ « النقطة الأولى هى جهازنا .. الجهاز الذى أخذوه منا فى القاعدة الأولى .. من أخذه طبيب يدعى (ستارسكى) .. »

ـ « أعرفه .. »

ـ « النقطة الثانية هى ما معنى هذا الذى يحدث ؟؟ سواء صدقتنا أم لم تصدق ، فنحن لا نعرف البتة كيف حدث هذا ، ولا متى وضع الهرم جوار آثار (بترا) .. من هم العظايا ؟ من هؤلاء الناس ؟ »

قال وهو ينزع النظارة :

ـ « سأحكى كل شىء .. ربما لأذكر نفسى ، سأسألكما أسئلة كثيرة بعد ما تنتهى قصتى .. »

★ ★ ★

قال (جمشيد) وهو يرشف القهوة العربية :

ـ « إنهم يحاولون إبادتنا بالكامل .. بعدما انتصروا علينا

وسادوا البر والبحر والسماء ، يحاولون أن يزيلونا من على وجه الأرض ..

ـ « فيما مضى كان هناك عالمان .. عالم الشرق وعالم الغرب .. هذا قديم جدًا .. وكان التناقض بين العالمين قويًا جدًا برغم المحاولات العديدة لتقريبهما ، لكن الغربيين كانوا يؤمنون بأن العالمين لن يلتقيا .. وقديمًا قال أحد أدبائهم إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدًا .. »

كان يتكلم عن (رديار كيبلنج RUDYARD KIPLING) .. لديهم واحد منه هنا إذن ..

واصل (جمشيد) الكلام :

ـ « كانت هناك شعوب عدة فى الشرق .. العرب .. الهنود .. بالإضافة إلى بعض الشعوب الصغيرة مثل تلك الموجودة فى قلب إفريقيا وأجزاء من أستراليا .. وكان الصدام الحضارى قاسيًا وصل درجة الحروب فى أوقات ما .. المشكلة بالنسبة لنا العرب هى أن ثرواتنا كانت عظيمة ، ولم يكن الغرب ليستطيع تكوين صناعة ناجحة من دون الاعتماد علينا .. كما أن بعض دولنا ـ مثل مصر ـ تميز بموقع جغرافى غير عادى يحتم السيطرة عليه ..

« (بونابرت) الغازى الشهير قال (إن مصر أهم بلد فى العالم) .. وكان يعنى بهذا أن من يسيطر على مصر يسيطر على العالم .. كما كانت هناك دول بالغة الأهمية .. مثل الصومال التى تشكل نقطة حاكمة على ساحل إفريقيا وعلى الخليج الهندى ..

« كانوا أذكياء بارعين .. وقد طوروا علومهم بحيث استطاعوا السيطرة علينا .. كانوا يأخذون منا الثروات ليصنعوها ، ثم يبيعوها لنا بسعر باهظ .. وكان اعتمادنا عليهم كليًا ..

« النقطة الثانية هى أنهم استطاعوا أن يزيلوا الخلافات بينهم .. لم يعودوا شتى .. بل كونوا جيشًا موحدًا .. وصارت لهم تجارة واحدة واقتصاد واحد .. »

قالت (سلمى) فى حماسة :

ـ « نفس الشىء حدث فى عالمى .. لكن العرب هم من صنع هذا .. »

لم يهتم الرجل بملحوظتها وواصل الكلام :

ـ « صارت هناك الولايات الشرقية فى شرق أوروبا .. والولايات الوسطى فى غرب أوروبا ووسطها .. ثم الولايات الغربية عبر المحيط .. هذه الدولة الكبرى ذات الموارد غير المحدودة اسمها (إمبيريا) ..

« لكننا فى زمن التكتلات هذا ازدادت خلافاتنا ومشاكلنا .. كلما تقاربوا هم تباعدنا نحن .. تكالبنا على مصالحنا الشخصية الضيقة .. غرقًا فى الشعارات والشعر .. ومن حين لآخر يقول قائل : فلنكف عن الخطب .. حان وقت العمل .. ثم تتحول كلماته هذه إلى خطبة جديدة .. ولم نستطع الإتفاق على شىء واحد حتى كدنا نختلف حول ما إذا كنا فى النهار أم الليل .. والنتيجة هى إننا تلاشينا .. فجأة لم نعد قوة لها حساب .. وصاروا قادرين على أن يعملوا بنا ما يريدون .. بدءوا بالبلد (أ) وقالوا إن هذا لمصلحتنا .. فتناسينا الأمر .. ثم انتقلوا إلى البلد (ج) زاعمين أن هذا ضرورى .. ثم جاء دور البلد (د) .. أنتم تعرفون قصة الثيران الثلاثة الشهيرة التى (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) .. الآن لم يبق منا إلا بلد واحد على الساحل الغربى لشمال إفريقيا .. وهم لا ينوون تضييع الوقت .. إن دوره قادم حتمًا ..

ـ « المشكلة الأخطر هى أن ثرواتنا انتهت .. نفدت .. وهكذا انصرفوا عنا .. حتى الاحتلال حمل عصاه ورحل تاركًا بعض المعسكرات المتناثرة .. فى الماضى كانوا يصدرون لنا الطائرات والسيارات والأجهزة الإلكترونية .. أما الآن فلم يعد لدينا ما نعطيه .. بالتالى لم يعد لديهم ما يقدمون .. وبالتدريج لم

يعد لدينا دواء ولا كساء ولا أى شىء .. يسهل تصور هذا إذا تذكرت أنهم يصنعون القلم الرصاص ذاته ..

« هنا وجد هؤلاء القوم أنفسهم فى مشكلة .. إن الشعوب التى نفدت ثرواتها أو لم تعد لها أهمية ما ، تشكل خطرًا دائمًا .. إنها غاضبة جوعى والجائع الغاضب يفعل أى شىء ..

« لم يكن الغربيون ممن يهتمون بالحياة البشرية إلى هذا الحد .. إن إبادة الهنود الحمر بالرصاص أو التجويع أو حتى البطاطين الملوثة بالجدرى لأمر لا ينكره التاريخ .. وقد جاء الدور علينا .. لا بد من استئصال الشعوب التى لم يعد لها أهمية ..

« استغرقت حملات الإبادة مائة عام .. والنتيجة هى أننا كدنا نزول بالفعل .. هنا يبرز الجانب الإنسانى المنافق لهؤلاء القوم .. إنهم يبيدوننا بيد ويقدمون لنا العون بيد أخرى .. ليس الغرض هو الحفاظ على أرواحنا ولكن الحفاظ على جزء مهم من تاريخ هذه الأرض .. نحن كنز ثقافى علمى لا بد من إبقائه ..

« وهكذا تكونت الـ ESF وهى هيئة علمية شبه عسكرية ، تعمل على الحفاظ على ما تبقى من آثار تلك الشعوب التى بادت أو كادت .. ثمة متحف ـ زرتماه أمس ـ يضم ما بقى

من عينات بشرية حية أو ميتة .. هياكل .. أدوات كنا نستعملها .. إلخ .. وهم يجمعون أى عظام فى الصحراء باعتبارها كنزًا ثمينًا يزداد قيمة يومًا بعد يوم ..

« قاموا بجمع كل الآثار فى مكان واحد كما رأيتما لتسهل زيارتها وصيانتها .. وهم يطلقون لفظة (العظايا) على كل شىء يحاولون الحفاظ عليه .. بدءًا بعظام الديناصور وانتهاء بعظامنا نحن .. »

ابتلعت ريقى وقلت :

ـ « إن كلامك مخيف .. والآن أعرف الاختلاف بين الكوكبين .. ليس جوهريًا .. إنه اختلاف زمنى لا أكثر ! فقط أنتم تسبقوننا فى الأعوام ! »

سألته (سلمى) :

ـ « وأنتم ؟ ماذا تفعلون ؟ »

قال منهمكًا :

ـ « نحاول ما يفعله أى كائن آخر وما فعله الهنود من قبل .. نحاول أن نبقى .. أن نحافظ على حضارتنا .. نقاومهم .. نقاومهم بشراسة لكننا فى الحقيقة لا نحدث أكثر من بعض الخدوش فى الدبابة ..

« نحاول التشبث بهويتنا .. نحافظ على ديننا .. نحافظ على لغتنا .. على أسمائنا .. كل واحد منا يحمل اسم علم من أعلام العرب .. هكذا لا ننساهم أبدًا .. لاحظت أن طعامنا غارق فى التقاليد العربية .. حتى الأغانى لا نسمعها للمتعة ولكن لأنها تجعلنا على خطوط اتصال مفتوحة بماضينا .. نتناسل .. نعلم أطفالنا .. »

سألته (سلمى) :

ـ « هل تعتقد أنهم سينجحون فى إبادتكم ؟ »

ـ « لا أتساءل .. لقد نجحوا فعلاً !! فقط آخر معقل لنا هو ذلك القطاع فى شمال إفريقيا .. ومن الواضح أن اجتياحه قادم .. لسوف يبقى عشرات منا يمثلون ما يمثله الهنود فى أمريكا الشمالية .. مجرد أثر أنثروبولجى عالى القيمة .. ولربما يظهر بعضهم فى السينما من حين لآخر فى أدوار السحرة الهنود الذين يعرفون الأسرار كلها ! »

قلت فى غيظ :

ـ « هذا مهين حقًا يا (جمشيد) .. توضعون فى المتحف وتنظم الزيارات لرؤيتكم .. »

قال ببساطة :

ـ « من أنكر هذا ؟ لا حاجة بك إلى أن تخبرنى .. لكنك ترانى أقاتل ولسوف أموت وأنا أحمل بندقيتى .. »

ـ « هذا غير كاف .. الهنود كانوا من أبسل الشعوب وأشجعها .. وليس منهم من لم يمت وهو يقاتل .. لكنهم انقرضوا برغم هذا .. »

ابتسم فى قسوة لأنه وجد ساذجًا يهذى ، وقال :

ـ « إذن قل لى ما أفعله ولسوف أكون شاكرًا .. »

قالت (سلمى) :

ـ « يتكلم عن السلاح طبعًا .. ما هى حالة تسليحكم ؟ »

لوح بالبندقية وقال باسمًا :

ـ « هذا .. وبعض المتفجرات .. بعض الصواريخ الحرارية .. لا يوجد الكثير .. »

ـ « نعنى الأسلحة المحترمة .. ما هو وضعكم النووى ؟ »

ارتجفت للفكرة ، لكنى نظرت لها وقلت فى استخفاف :

ـ « ماذا تتوقعين ؟ هذه الأشياء تحتاج إلى قدر هائل من العلم والمال .. »

قال (جمشيد) فى جدية :

ـ « كما تقول .. لكن هنـاك كذلك القنبلة الأيونية ، وهى لا تقل خطرًا عن النووية .. هناك عالم باكستانى استطاع أن يصنع قنبلة أيونية خفيفة الوزن رخيصة الثمن ، وبحث كثيرًا عمن يموله لكن الجميع خشى الكلفة أو المسئولية .. الرجل الآن ضائع ولا يعرف أحد مكانه .. »

ثم لعق شفته السفلى الجافة وغمغم :

ـ « رحمه الله إن كان ميتًا .. اسمه كان (إسماعيل خان) .. »

هتفت (سلمى) وهى تثب على قدميها :

ـ (إسماعيل خان) لقد كان سجينًا فى المعسكر الأول .. »



* * *

10 ـ عملية ليلية ..

قلت فى ملل :

ـ « أعتقد أن كل الباكستانيين اسمهم (حشمت خان) أو (إسماعيل خان) .. هذا لا يضيف شيئًا .. »

لكن (جمشيد) كان مهتمًا بالأمر .. قال لنا فى جدية :

ـ « على قدر علمى لا يوجد فى المنطقة إلا هذا الـ (إسماعيل خان) .. »

جلس وللمرة الأولى تتفحص عيناه القويتان وجوهنا .. سألنا عن كل التفاصيل .. كان يعرف المعسكر جيدًا ، ولكنه يجهل كل شىء عمن فيه .. كانوا يطلقون عليه (مجزر ستارسكى) .. و(ستارسكى) هذا هو مدير المشروع والمسئول عنه بالكامل ..

ومن جديد عاد يسألنا عن تفاصيل زيارتنا السياحية إياها .. فلما انتهينا من سرد قصتنا ، قال لنا وهو ينهض :

ـ « ستظفران بقسط من الراحة .. إن هذا الخبر أهم شىء سمعته منذ سنين .. (إسماعيل خان) حى .. »

دخلنا إلى أحد الأكواخ حيث مارسنا تلك المتعة العظمى : خلع الحذاء .. وجاءتنا امرأة بجرة مليئة بالماء كى تغسل وجوهنا ونشرب .. ثم جلبت جرة بها لبن بارد .. لا بد أنه لبن ماعز ..

قلت لـ (سلمى) وأنا أرقد على الأرض التى غطتها بعض الجلود :

ـ « لا أعرف ما هى تلك القنبلة الأيونية .. »

قالت فى ثقة وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها :

ـ « موجودة فى عالمى .. إنها شديدة الفتك .. »

قلت لها فى ضيق :

ـ « أنا أكره الدمار أينما كان .. وعلى قدر علمى لم يمتلك إنسان سلاحًا إلا وجربه .. لقد كانت الحرب العالمية قد انتهت تقريبًا لكن الأمريكان وجدوا أن (أوبنهايمر OPPENHEIMER) اخترع القنبلة الذرية فعلاً .. هكذا كان الإغراء أكبر من أن يرفض .. »

ـ « تعنى أنهم ألقوها على اليابان لمجرد أنهم يستطيعون ؟ »

ـ « هذه هى الحقيقة .. »

شردت (سلمى) وابتسمت بزاوية فمها اليسرى قائلة :

ـ « على قدر علمى لا يوجد طريقة لحفظ السلام إلا أن تملك ما يملكه خصمك .. فيما عدا هذا لا توجد أسس للسلام .. لقد عرف العرب فى عالمى هذا الدرس مبكرًا وطبقوه بعناية .. إن هذا هو توازن الرعب .. لا أعرف إن كان عندكم هذا المصطلح أم لا .. لو امتلك العرب هنا قنبلة أيونية فإنهم يستطيعون الحفاظ على حضارتهم العريقة من الانقراض .. »

ثم أضافت وهى تعتصر قبضتها :

ـ « ثم أى شىء يمكن أن يصمد أمام هذه المهانة ؟ رحلات سياحية وعروض فى نوافذ عرض ؟ اسم المشروع نفسه مهين (صندوق الأنواع المنقرضة) .. هل تقبل لنا أن نتحول إلى نوع ؟ »

الحقيقة أن كلامها لم يخل من منطق .. وتذكرت الاسم الذى اختاره (بن جوريون) فى عالمى لمشروع القنبلة الذرية الإسرائيلية : ميكرع هاكول .. عبارة عبرية معناها (قبل أن يضيع كل شىء) !

لو كان الهنود الحمر يملكون مدافع وديناميت وجيوشًا منظمة

لظلوا أحياء .. ولربما طردوا الغزاة الأوروبيين كذلك .. لقد صدقوا مقولة (إن الشجاعة تكفى) .. لكنهم لم يعرفوا أن (التكنولوجيا تقهر الشجاعة) ..

قلت وأنا أغمض عينى :

ـ « أرجو فقط أن يكون هدف هؤلاء هو التهديد لا أكثر .. »

★ ★ ★

فى المساء رأيناهم ..

كانوا عشرة من الرجال الأشداء كاملى التسليح .. لقد لفوا الكوفيات ملثمين وجوههم فبدوا شديدى المراس مرعبين .. وكانوا يرسمون على الرمال خطة كاملة لعملية الليلة ..

قلت لهم وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى :

ـ « هل آتى معكم ؟ »

قال (سلمان) وهو ينظر لى فى ثبات :

ـ « لا يا أخى .. فأنت خائف .. »

كيف عرف هذا ؟ بالطبع لو كان هو أنا .. لا بد أنه يعرف ما أشعر به .. هو كذلك خائف لكن للضرورة أحكامها ..

ودت لو بقى فترة أطول لأسأله عما إذا كان يحب القطط الصغيرة وقراءة الصحف فى الحمام ومصاب بالقرحة .. طبعًا لا مجال لأسئلة سخيفة كهذه فى هذا الوسط الذكرى القاسى شديد الخشونة .. لا بد أنه لم ير جريدة ولا حمامًا قط ..

وقال (جمشيد) الذى وقف وسط الرجال :

ـ « مهمتهم خطرة ووصفك للمكان دقيق .. إن ذهابك معهم سيعوقهم .. »

ثم نظر لهم نظرة ذات معنى وقال :

ـ أتوقع ألا يعود منهم إلا ثلاثة لو كانوا مجدودى الحظ .. لهذا أطلب منهم الاستعداد للشهادة من الآن .. لقد أبلغنا أسركم بأنكم قضيتم نحبكم ظهر اليوم .. »

دنوت منه فى خجل وقلت :

ـ « ثمة شىء آخر يهمنى .. (ستارسكى) هذا .. إن معه جهازًا فى حجم قبضة اليد .. جهازًا يشبه الآلة الحاسبة لو رأيتم واحدة .. آلة حاسبة عليها حروف وأرقام عربية .. هذا الجهاز هو مفتاح عودتنا إلى عالمنا .. لا أعرف إن كنت تصدق أم لا .. أعرف أنك لا تصدق .. لكنى راغب فعلاً فى استرداد هذا الجهاز سليمًا .. »

نظر إلى الرجال وقال :

ـ « سمعتم ما قال .. لا داعى للشرح .. لكنى أرجو أن تحاولوا استرداد هذا الجهاز .. لو اضطررتم إلى تهديد (ستارسكى) فلا بأس .. »

ثم نظر لى وسألنى :

ـ « كيف تقول (الجهاز الصغير) بالإنجليزية ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « ديفايس .. أو فلنقل .. سمول أباريتص .. »

ـ « ليكن .. لا تنسوا هذه العبارة .. سمول أباريتص .. »

ثم لوح بقبضته وهتف :

ـ « أريد الباكستانى .. أقسموا على أن تأتوا به لى .. »

أقسم الرجال وتعانقوا مع (جمشيد) .. حتى أنا نالنى عناق أو اثنان برغم أنه لا دور لى فى هذه القصة ..

ثم إن الصحراء المظلمة ابتلعت الرجال ..

قال (جمشيد) وهو يجلس :

ـ « لن يعود من تبقى منهم إلا فى الصباح .. لنشرب بعض القهوة ثم نخلد إلى النوم .. »

★ ★ ★

لكن النوم مستحيل فى ليلة كهذه ..

الشعور بأنك مسئول عن حياة هؤلاء الرجال ، وأنك ربما كنت مخطئًا .. الشعور بأن كل هذا مستحيل .. لقد فررنا بنوع من السهولة من المعسكر فى المرة السابقة ولكن هذا لأنهم تصرفوا معنا بإهمال .. لكن ماذا عن إهمالهم الآن ؟

ورحت أشق بعينى المسافات ..

أرى الرجال يتسللون على المعسكر ..

يقطعون السلك الكهربى الذى يتصل بالسياج ، ثم يقطعون السلك الشائك نفسه .. يزحفون على البطون إلى الداخل .. ثمة حارس يقابلهم فيلتحمون معه بالسلاح الأبيض ..

يفتشون بين الغرف .. يلتحمون مع حراس آخرين .. الآن لم تعد هناك حاجة للسلاح الأبيض لأن بعض الطلقات انطلقت بالفعل ، ودوت صفارات إنذار ..

الآن صارت العملية أكثر قسوة .. وبدأت الطلقات تدوى .. ثم أخيرًا يدخل أحدهم السجن فيجد الشكل القابع فى الظلام .. يطلق الرصاص على القفل ليخرجه ..

مزيد من الطلقات ..

(ستارسكى) يغادر مكتبه فيجد فوهة بندقية تلتصق بصدغه .. يعود إلى المكتب شاحب اللون عاجزًا عن الكلام .. لقد فعل الكثير بالعرب من قبل ، ولو كان من يهدده الآن يعرف هذا لانتهى أمره ..

لكن من يقتاده إلى المكتب يسأله بلغة إنجليزية فظيعة :

ـ « سمول .. سمول أباريتص .. أباريتص .. سمول .. »

يفرغ كل أدراج مكتبه من أى (أباريتص) .. يضعها على المنضدة وعيناه لا تفارقان الفوهة .. يبحث المهاجم بين الأجهزة ثم يلتقط ذلك الجهاز الذى وجده مع الغربيين فى الصحراء .. يدسه فى جيبه .. ينظر له .. ثم يغادر المكتب ..

يجلس (ستارسكى) يجفف عرقه غير مصدق .. لو عرف الأحمق أنه أضاع أكبر فرصة للانتقام فى التاريخ .. الحقيقة أن (ستارسكى) أجرى على العرب تجارب تفوق ما كان (يوسف منجيل) الرهيب قد أجراه على اليهود .. تفوقها عددًا وتنوعًا .. لكن فى هذا العالم .. كما فى أى مكان آخر — يوجد ثمن للدم اليهودى بينما لا ثمن لأى دم آخر ..

الحقيقة هنا أن هؤلاء الرجال لم يتلقوا تعليمات بقتل (ستارسكى) إلا لو قاوم ..

المهاجمون يغادرون المعسكر وهم يطلقون النيران .. تنفجر طائرتان عموديتان كان الكل يعتمد عليهما فى مطاردة الهاربين عبر الصحراء ..

هناك من سقطوا من المهاجمين .. لكنهم جثث هامدة .. لا يمكن استجوابهم ..

واحد فقط وثب على مجموعةً من الحراس .. ثم دوى انفجار مريع وتناثرت الشظايا فى كل صوب .. لقد لغم نفسه ..

حقًا لم أستطع النوم وأنا أحلم بهذا كله ..

نظرت إلى (سلمى) فوجدتها تنعم بنوم هادئ ..

غادرت الخيمة وخرجت إلى العراء ..

كان (جمشيد) يجلس أمام جهاز صغير .. دنوت أكثر فوجدت أنه جهاز تلفزيون .. أقدم جهاز رأيته فى حياتى ، وعلى شاشته كانت أسوأ صورة رأيتها فى حياتى .. المتكلم لا يكمل جملة واحدة من دون أن تتلاشى الصورة إلى ذرات . من ثم يقوم (جمشيد) بتحريك الجهاز أو لفه .. بعد قليل تتحول الذرات إلى متكلم ..

كان الجهاز يعمل بالبطاريات الجافة .. ورأيت أن سلكًا يخرج منه علقه (جمشيد) إلى أقرب نخلة ..

جلست جواره وغمغمت :

ـ « تلفزيون .. لم أعرف أن عندكم واحدًا :. »

ـ « الأخير .. يساعدنا فى معرفة ما يدور هناك .. لكننا لا نعرف أية لغة أجنبية ، لهذا نشاهد الصور فقط .. »

ـ « من عرف لغة قوم أمن شرهم .. »

ـ « هذا حق .. لكن لا يوجد معلمون هنا كما ترى .. هل تقبل تعليمنا ؟ »

كنت لا أرغب ولا أتمنى أن أظل هنا إلى هذا الحد ، لكنها فكرة لا بأس بها .. من المفيد أن تعلم هؤلاء القوم شيئًا .. إنهم عرب برغم أنهم على كوكب آخر فى مجرة أخرى !

أضاف فى شىء من الفخر :

ـ « لدينا كذلك كاميرا وشريط فيديو .. لم نستعمل هذين قط لكنهما قد يصلحان يومًا .. »

على الشاشة كان هناك مجموعة من السادة يبدو عليهم الهمّ مع الكثير من الجدية ..

قلت لـ (جمشيد) :

ـ « إنهم قلقون بصدد وجود مجموعات إرهابية فى المنطقة الغربية من الشمال الإفريقى .. »

قال ضاحكًا :

ـ « هم دائمًا قلقون .. منذ مائة عام وهم قلقون .. أحرقوا أطفالنا وقرانا ومساجدنا وما زالوا قلقين .. يملكون الطائرات والقنابل النووية والهيدروجينية والنيوترونية والأيونية وما زالوا قلقين .. عروا نساءنا واقتحموا ديارنا وما زالوا قلقين .. لا أعرف كيف نطمئنهم على أنه لا خطر منا ! »

هزتنى كلماته فرحت أراقب الشاشة صامتًا كى لا يتهدج صوتى ..

قلت له :

ـ « يبدو أنهم ينوون تجريد حملة لتطهير هذا القطاع .. »

ـ « بالتأكيد .. كلنا يعرف هذا .. سيمرحون كثيرًا هناك ..

ثم نظر إلى الأفق وقال وهو ينهض : »

ـ « إنه الصياح .. ربما يعود رجالنا أو لا يعودون .. لكنى على كل حال سأخفى السلك الآن حتى لا تلاحظه الطائرات .. من الخير أن نختفى نحن أيضًا فلربما كانت جولة سياحية مبكرة .. ثم توقف ونظر للأفق وهتف : »

ـ « لم تعد عيناى على ما يرام .. هل ترى رجالاً هناك ؟ »

نظرت إلى حيث أشار وقلت :

ـ «نعم .. هناك رجال وأحدهم يحمل رجلاً على كتفه .. إنهم رجالك .. أعنى رجالنا .. »

★ ★ ★

11 ـ ميكرع هلكول ..

أو (قبل أن يضيع كل شىء)

كانوا قد صاروا خمسة ..

تركوا منهم خمسة هناك جثثًا هامدة .. لم يتركوهم إلا بعدما تيقنوا من أنهم جثث هامدة ، لأن تعذيب (ستارسكى) ينتزع الأسرار من حوض الاستحمام ذاته ..

لماذا لم يعذبنا حين كنا فى قبضته ؟ ثمة رأيان .. الرأى الأول يقول ما معناه (لا تتعجل رزقك .. كل شىء كان فى الطريق) .. الرأى الثانى يقول : لأننا كنا غريبين غير معتادين بالنسبة له . وكان يشعر أننا قد نفيده أكثر مما لو عذبنا وتركنا حطامًا بشريًا ..

والسؤال هنا : ماذا بقى من ذلك الباكستانى لو كان هو المطلوب ؟

أما الخبر السيئ فهو أن (سلمان) قد كان من الذين لم يعودوا قط .. ولن يعودوا أبدًا .. كتب لى و(سلمى) أن

تلقى نسختنا هنا الشهادة .. نحن اللذان لم نتبادل معه أكثر من ثلاث عبارات ..

وصلوا إلى الخيام وبسرعة تمت عملية إخلاء عاجلة ..

لم يبق إلا عدد محدود منا دخلوا إلى الخيام ، بينما ذاب أكثرهم فى الجبال .. إن الطائرات قد تصل فى أية لحظة ..

كان الباكستانى فى حالة مريعة .. تذكروا أننا لم نره فى النور قط .. بل لم نره فى الظلام .. وقد بدا لى مثل (روبنسون كروزو) بعد أعوام من محبسه .. أظفار طويلة ولحية تغطى أعلى بطنه وأسمال بالية .. لكنى رأيت عينيه فأدركت أنهما تشعان ذكاء .. إنهم لم يقضوا عليه بعد ..

كان أول سؤال سألناه له :

ـ « هل تكلمت ؟ »

قال بعربية واهنة عرجاء :

ـ « لا .. »

وهكذا هدأت النفوس قليلاً وبدأت عملية إطعام الرجل وسقى الرجل وغسل جسد الرجل وإبدال ثياب الرجل وإراحة الرجل .. طبعًا قامت (سلمى) بالجزأين الأول والثانى ، بينما وقعت الأجزاء الثلاثة الباقية على عاتقى ..

فى نهاية اليوم كان قد بدأ يبدو بشريًا لكنه ظل عاجزًا عن الوقوف .. الآن فقط أجد أنه يبدو كالعلماء وليس كالمجاذيب .. وهكذا جلسنا على الرمال فى حلقة صغيرة حول نار متقدة .. ودارت الدلة تقدم لنا القهوة العربية ..

قال له (جمشيد) وهو يقدم له بعض اللبن :

ـ «منذ متى وأنت معهم ؟ »

ـ «خمس سنوات ! »

ـ «ولماذا احتفظوا بك كل هذا ؟ »

ـ «خمنوا أن ما لدى خطير .. لكنى لم أتكلم .. لهذا كان الحل الوحيد أن يبقونى حبيسًا .. »

قال (جمشيد) وهو يعقد يديه أمام وجهه :

ـ «دعنى أقل لك إننا لم نفقد خمسة من رجالنا لأننا نحب ذلك .. نحن نعرف أنك الوحيد القادر على صنع أو اختراع القنبلة الأيونية .. ومصيرنا كله معلق بها .. »

قال الباكستانى واللبن يسيل على ذقنه :

ـ «لقد صنعتها بالفعل ! »

هنا ساد صمت رهيب .. وسقطت بعض الأقداح من الأيدى .. إذن كانت القنبلة موجودة طيلة هذه الأعوام ولا أحد يعرف ..

ـ «وهل تستطيع عمل سواها ؟ »

ـ «مستحيل ! لم يعد الزمن ذات الزمن .. قمت بتركيب آخر جزء منها وأنا فى قسم الفيزياء فى (كراتشى) قبل أن تسقط البلاد .. إنها مدفونة فى الصحراء هنا فى موضع لم أنسه قط .. لكنى فى السجن منذ خمس سنوات .. وكنت أتمنى لو خرجت وفجرتها فى قلب (إمبيريا) .. فى هؤلاء الكلاب الذين عذبونا وأهانونا .. »

ولمعت عيناه ببريق متوحش :

ـ « أتمنى أن أرى لحمهم يحترق ويذوب .. أن أسمع صرخات نسائهم .. أن .. »

هنا تدخلت أنا فى عصبية :

ـ « اسمع يا سيدى .. قبل أن تدخل فى تفاصيل .. هذه القنبلة لن تلقى على بشر .. سيتم استعمالها كورقة ضغط ! »

نظر لى متحديًا بعينيه الواهنتين وقال :

ـ «ومن أنت كى تحدد لى ؟ »

قال (جمشيد) وهو يهدئ الأمور :

ـ « هذا هو الرجل الذى لولاه لقضيت فى محبسك .. وإننى لأرجو سماع خطته قبل أن نتحرك .. »

تكورت على نفسى ودنوت أكثر من النار ، وبحثت عن (سلمى) فوجدتها تبتسم لى مشجعة .. قلت بلهجة حاسمة :

ـ «أولاً .. يجب تفجير هذه القنبلة .. هنا فى الصحراء .. »

قال (جمشيد) فى غيظ :

ـ «إذن أنت تمزح .. كل هذا الجهد كى نفجر أملنا الأخير فى الصحراء ؟ »

قلت ضاغطًا على كلماتى :

ـ «ليس هدف القنبلة التدمير بل التخويف .. لا بد من أن تصل الرسالة كاملة .. هل هناك محطات تلفزيونية هنا ؟ أعنى شبكات عالمية للأخبار ؟ »

قال (جمشيد) :

ـ « هناك شبكات عدة كلها فى المدينة الصحراوية .. إنها تبث إلى العالم الغربى أخبار العطايا .. »

ـ «وما هى قدرتكم على توصيل شريط فيديو لهم ؟ »

- « أعتقد أن رجالى قادرون على ذلك .. هناك صناديق بريد على كل حال .. »

- « إذن سيتم التفجير فى أقرب فرصة .. وسنقوم بتصويره .. أنت قلت إن هناك كاميرا .. »

قال (جمشيد) باسمًا :

- « لا داعى للتصوير .. ما إن يتم الانفجار حتى تلتقطه الأقمار الصناعية .. سيعج المكان برجالهم خلال ساعات .. لو أن ثعبانًا تثاءب فى هذه الصحراء لالتقطوا صورته .. »

- « لكنى أريد التصوير .. لن أسمح بالمجازفة أو أن يمر الانفجار دون أن يلاحظه أحد .. »

انتهيت من كلامى فاسترخيت قليلاً ، هنا قال لى (جمشيد) وهو يضحك ضحكة ذات معنى :

- « بالمناسبة عندى هدية لك .. »

- « وما هى ؟ »

كان الجهاز ناقل الجزيئات فى يده .. لم أر قط جهازًا أجمل من هذا ..

مددت يدى لكن يد (سلمى) كانت الأسرع .. لقد انتزعت

الجهاز وراحت تقلبه فى يدها فى نهم .. ضغطت زرًا صغيرًا لتتأكد من أن البطاريات بحال جيدة .. لم يخدش لحسن الحظ ، وكان من السهل أن تخترقه رصاصة ..

قالت لى فى خبث :

- « ما رأيك ؟ »

- « مثل رأيك .. لم يحدث قط أن استرددناه بهذه السهولة .. »

- « هل نرحل ؟ »

- « لا .. لابد من اتمام مهمتنا .. لكنى أوصيك به خيرًا .. أنت لا تفعلين شيئًا إلا إضاعته كأنما يدفعون لك راتبًا من أجل هذا .. »

ونظرت لـ (جمشيد) طويلاً وابتسمت .. ومن قلبى همست :

- « شكرًا .. »

* * *

تم التفجير فى السابعة صباحًا بعد يومين ..

كانت القنبلة تعمل جيدًا ، وكان العالم قد دفن جوارها أجهزة التحكم عن بعد اللازمة لهذا التفجير ..

ابتعدنا مسافة كافية فى تقدير العالم ـ حوالى كيلومترين ـ ثم تم الانفجار .. ولم تفارق عين (سلمى) العسة لحظة واحدة ..

حقًا كان أغرب انفجار رأيته فى حياتى .. له ذات الطابع الذى رأيته للقنابل فى هذا العالم .. الانتشار الشبيه بالسوائل ، ثم اللهب الأخضر .. لكنه انفجار ضخم مريع .. سحابة زرقاء تتصاعد لتنتشر على ارتفاع كيلومتر من سطح الأرض لكنها لا تشبه سحابة عش الغراب الشهيرة ..

كان الباكستانى فى حالة مريعة من التوتر والقلق .. إنه لم يجرب قنبلته قط وكان من السهل أن يفشل .. لهذا بكى فرحًا حين رأى الانفجار ..

توقعت أن يقول (أنا قد صرت الموت .. مدمر العالم) كما فعل (أوبنهايمر) بعد نجاح أول تجربة للقنبلة الذرية فى (لوس الأموس) على كوكبى .. لكنه لم يكن يعرف هذه الصلاة الهندية على كل حال ..

المهم أن الفيلم كان ناجحًا ..

بعد هذا عدنا إلى الأكواخ .

بدأنا بتعليق ملاءة كبيرة على الجدار لتكون خلفية محايدة للصورة ..

ثم جاء دورى ..

كنت قد كتبت الخطبة عدة مرات ، وتدربت على إلقائها .. فى النهاية صرت أحفظها عن ظهر قلب ..

جلست (سلمى) أمامى وبدأت تشغيل الكاميرا العتيقة ..

كنت أظهر بوجهى كاملاً الآن .. لو سارت الأمور كما نريد فلن نكون هنا حين يفتشون عنا ..

أشارت لى باسمة كى أبدأ الكلام فابتلعت ريقى ..

كنت أنا الوحيد الذى يمكن أن يلقى هذه الخطبة لأننى أجيد الإنجليزية .. ولأننى و(سلمى) لن نكون هنا كما قلت لك ، حين يشرع الجنود يفتشون تحت كل حجر ..

فقط عليهم ألا يعرفوا أننا كنا فى هذه القرية .. لهذا وضعنا الملاءة ..

قلت بصوت هادئ :

ـ «نعم يا سادة .. ما رأيتموه هو انفجار تجريبى للقنبلة الأيونية التى تمكنا من صنعها بمعونة بروفسير باكستانى ، الذى يدهشنى أنه كان فى قبضة د. (ستارسكى) ولم ينتزع منه أية أسرار بل وتركه يفلت من يده .. والأهم هنا أننى كنت أنا نفسى فى قبضة د. (ستارسكى) .. »

كان هذا نوعًا من (الإسفين) أدقه عمدًا .. وأنا أعرف أن حالة الهياج والذعر التى ستحدث كفيلة بسلخ الرجل حيًا ..

واصلت الكلام :

- « الحقيقة المخيفة يا سادة هى أن هناك أربع قنابل من ذات النوعية موجودة الآن فى مخابئ حصينة فى أربع مدن مهمة من مدنكم .. أية مدينة هى ؟ هل (لندن) ؟ (لوس انجليليس) ؟ (شيكاغو) ؟ (بوخارست) ؟ إن الحدس متروك للجميع .. لكنى أؤكد لكم أن هذه القنابل تم تركيبها بالداخل على أيدى عملائنا وبخامات محلية .. وهناك شاب مسئول عن كل قنبلة .. هذا الشاب من ذويكم ويتقاضى أجرًا على مهمته هذه .. وهو لا يعرف أى شىء عنا ولا عن القنابل الأخرى ، لكنه سينفذ مهمته بمجرد أن يتلقى إشارتنا .. والإشارة قد تكون أغنية أو أعلانًا فى التلفزيون .. قد تكون رسالة وقد تكون موعدًا محددًا .. »

- « والآن لنا يا سادة أن نتخيل ما سيحل بمدنكم المزدحمة لو وجدت فيها ذات المشهد الذى رأيتموه فى الصحراء .. هل تخلون مدنكم ؟ مستحيل .. لا يمكن أن تخلوا كل مدينة من مدنكم .. ولو أننى حددت المدن المستهدفة لكان الأمر سهلاً .. »

- « هل هذا ابتزاز ؟ نعم يا سادة .. إنه ابتزاز .. لِمَ لا وقد تعلمنا منكم النفاق والخداع وازدواج المقاييس منذ

زمن .. أنتم أبدتم قومنا وفى الوقت ذاته تنفقون المليارات من أجل الحفاظ علينا لمتاحفكم وتطلقون علينا ذلك اللفظ المهين (العظايا) .. أى أننا انقرضنا لأننا لم نتطور .. »

- « لقد تعلمنا الدرس كاملاً ، ومن اللحظة سيكون توازن الرعب حقيقة واقعة .. »

- « نحن لا نهدد الآمنين .. لا نخيف أحدًا .. فقط نحن نحمى وجودنا وحضارتنا من صياديكم .. وما نطلبه منكم بسيط جدًا .. لا تأتوا إلينا .. نحن لن نذهب إليكم ، فلا تأتوا إلينا .. إن هناك حملة يتم إعدادها لإبادة غرب القارة عما قريب (لأنكم قلقون) .. وأنا أقول لكم إن هذه الحملة لن تتم .. لأن لحظة بدئها ستكون هى إشارة التفجير للقنبلة الأولى .. ثم يتم تفجير قنبلة كل يومين ..

- « لا تقنطوا يا سادة .. فلا تنسوا أنكم فعلتم شيئًا مماثلاً فى اليابان منذ أعوام ولم يتحدث أحد عن الابتزاز .. كان تفكيرًا عمليًا حقن دماء جنودكم كما قلتم وقتها ..

- « نحن نفعل نفس الشىء فلا تكونوا خاسرين سيئين .. يجب أن تتحملوا الهزيمة بروح رياضية ..

- « ستظل القنابل فى مكانها ولن تعرفوا مكانها أبدًا .. ولسوف تسحبون قواتكم وفرق الدراسات إياها .. لسوف

تتعاونون مع الحكومات الجديدة التى ستنشأ فى هذه المناطق .. لسوف تمولون مشروعات التعمير وما يلزم لإنشاء دولة .. هذا نذر يسير من كل الثروات الطبيعية التى سرقتموها من هذه البلدان .. نحن لا نطلب إلا الحق فى الحياة وهو مطلب عادل .. كما أن كلامنا واضح : لا تأتوا إلينا فلن نذهب لكم ..

ـ «ستبحثون عنى يا سادة لكنكم لن تجدونى .. لا تتعبوا أنفسكم فى استجواب الأبرياء وتعذيبهم .. فلا أحد يعرف أين أنا .. لا أحد يعرف مكان القنابل سواى .. ودعونى أؤكد لكم أننا نعتبر تعذيب الأبرياء أو البروفسير الباكستانى خرقًا واضحًا منكم ربما يستدعى تفجير واحدة من هذه القنابل .. »

ـ «شكرًا يا سادة .. وأكرر : نحن لم نفعل إلا تطبيق ما تعلمناه منكم .. »

انتهى التسجيل فرحت ألهث .. العرق يغمرنى .. ونسبة الأدرينالين فى دمى تجعلنى كأنما أنا خرقة بالية .. بينما رفعت (سلمى) إبهامها بمعنى أننى كنت رائعًا ..

سألت (جمشيد) :

ـ «الآن هل يمكنكم توصيل الشريط إلى إحدى وكالات الأنباء ؟ »

قال فى رضا وهو يأخذه منى :

ـ «بالتأكيد .. سيلقيه رجالى فى صندوق بريد الآن .. »

قالت لى (سلمى) باسمة :

ـ « هذه فكرة لا بأس بها .. »

قلت لها :

ـ «كانوا سيفجرون القنبلة على سبيل الانتقام لا أكثر .. وكنا سنفقدها بثمن بخس .. بهذه الطريقة من (البلف) يشعرون بأننا أقوى من حقيقتنا .. بالإضافة إلى أن يدنا لم تتلوث بجريمة حرب مثلهم .. »

* * *

وفى نشرات المساء رأينا الصورة مرارًا وسمعت كلماتى تتردد مترجمة لعديد من اللغات ..

أما الأجمل فهو حالة الاضطراب العامة التى بدت واضحة .. مظاهرات فى الشوارع .. مشاجرات برلمانية .. فرق بحث .. وهدير الطائرات فوق رءوسنا عدة مرات خلال نصف ساعة من إذاعة الرسالة مما دلنى على أن وقت الرحيل قد حان .. لقد صرت فجأة صاحب أشهر وجه فى العالم الغربى ..

ثم أعلن المذيع أن وفدًا من (إمبيريا) قادم إلى الشرق الأوسط لدراسة إجراء مفاوضات مع بقايا العظايا .. قالها فى النشرة الأولى ثم عدل الاسم إلى (المتمردون العرب) .. وفى النشرات التالية تحول الاسم إلى (الثوار العرب) ..

هكذا ! كاد يستفزنى إلى حد أن أفجر قنبلة ثانية !

جاءت أخبار أخرى عن وقف الزحف نحو القطاع الشمالى الغربى من إفريقيا .. ستتوقف العمليات بعض الوقت حتى ينبلج الضباب .. ليس هذا خضوعًا للابتزاز ـ كما قالوا ـ لكنه حرص على سلامة مواطنيهم ..

ـ « إنهم خائفون لكنهم يتظاهرون باللامبالاة ! »

قالها (جمشيد) فى رضا وهو يتابع الأخبار فهززت رأسى فى فخر ..

قلت وأنا أنهض :

ـ «يجب أن يخافوا .. هم مهددون بفقد كل شىء .. بينما نحن ـ عمليًا ـ لن نفقد أى شىء إلا حياة لا قيمة لها .. سيظل شبح القنابل الباقية جاثمًا فوق رءوسهم لأعوام عديدة .. يجب أن يعرفوا أن الخوف لعبة يلعبها اثنان .. وأنه لا يوجد بشر بلا ثمن لأرواحهم .. أعتقد الآن أنكم فى الطريق الصحيح .. لا أعرف طوله لكنه مرهق شاق .. »

قال فى حكمة وهو يطفئ جهاز التلفزيون :

ـ «ليكن خمسين عامًا أو مائة .. هذا لا قيمة له فى حياة الشعوب .. أنا سأكون فى القبر خلال عام أو عامين ، لكنى سأموت راضيًا لو عرفت أن وجودنا لن يزول .. وأننا لم نعد عظايا ..»

ـ « العظايا انقرضت لأنها بلا عقل ولا إرادة .. لا يمكن أن نكون عظايا أبدًا إلا لو فقدنا عقولنا وإرادتنا .. »

ثم عانقته طويلاً .. كان يعرف أننا الآن راحلون ..

ـ «شكرًا لك يا (سالم) .. فقد ساعدتنا كثيرًا .. »

ـ «شكرًا لك يا (جمشيد) فقد علمتنا كثيرًا .. »

وأمسكت بيد (سلمى) على حين ضغطت هى على أزرار الجهاز بالترتيب المعروف ..

وتلاشت الصحراء من حولنا ..

★ ★ ★

الخاتمـة ..

الآن أعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) العجوز بعد ما فرغت من قراءة هذا الخطاب ..

ما زالت عندى قصة أخيرة للأخ (سالم) هى (أرض الظلام) .. ولا أعرف لماذا لم يزرنى منذ اليوم الذى قدم لى فيه قصته (أرض أخرى) .. هل ما زال على كوكبنا أم أننا كنا مجرد مرحلة من جولته عبر الأكوان ؟

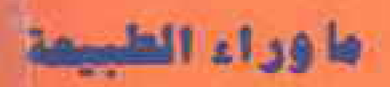
على كل حال آمل أن تكونوا قد أحببتم قصته هذه .. إنها كئيبة لكنى لا أعد بأن تكون (أرض الظلام) أقل قتامة .. قصة يكون هذا عنوانها ـ والمفترض أنه أكثر أجزائها بهجة وجاذبية ـ فكيف تكون أحداثها إذن ؟

فى الكتيب القادم أعود لكم بقصتى .. أو شهادتى عن تلك الطفلة غريبة (ماجى) التى جنت أو مستها (رونيل) السوداء ..

لقد راهنت على أننى سأجد الحل بسهولة لكنى كنت مخطئا لأن ...

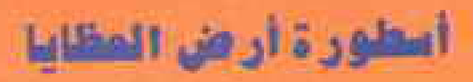
ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة



روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



حقًا لا يوجد
الكثير مما يُقال .. هناك
(سالم) و (سلمى) .. وهناك
أرض العظايا .. أعتقد أن
القصة أمست واضحة الآن !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ٢٥٠
... بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم :
أسطورة رونيل السوداء